الوارث

توزّع مجاناً

٢٨

نشرة شهرية دينية ثقافية تصدرعن
شعبة الدراسات والبحوث الإسلامية
في العتبة الحسينية المقدسة

جمادي الأولى ١٤٣٢هـ
نيسان ٢٠١١م

سلام الله عليها

قال رسول الله ﷺ :

((واني لما رأيتها ذكرت ما يصنع بها بعدي كأني وقد دخل الذل بيتها وانتهكت حرمتها
وغصبت حقها ومنعت إرثها وكسر ضلعها وأسقط جنينها وهي تنادي : يا محمدا فلا تجاب وتستغيث فلا تغاث))

الأمالي للصدوق. ص ١٧٦

[illegible]

الإشراف العام
الشيخ علي الفتلاوي

هيئة التحرير
السيد نبيل الحسني
الشيخ وسام البلداوي

التدقيق اللغوي
خالد جواد جاسم

التنضيد الالكتروني
محمد رزاق صالح

التصميم والاخراج الفني
السيد علي ماميثة
احمد محسن المؤذن

تنفيذ
دار الضياء للطباعة

هاتف: ٣٢٦٤٩٩
بدالة: ٣٢١٧٧٦ - داخلي: ٢٤٢
موقع العتبة www.imamhussain.org
موقع القسم www.imamhussain-lib.org
بريد القسم info@imamhussain-lib.org

إصدار
قسم الشؤون الفكرية والثقافية
في العتبة الحسينية المقدسة
رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق
- وزارة الثقافة لسنة ٢٠١١ : ١٢١١

مقدمة الطفوف

مليئة هي الطبيعة بالسنن الإلهية، ومليئة هي الحياة بالدروس والعبر كما ملئت بالأحزان والأفراح ولعلهما أي الأحزان والأفراح مما تفرد به هذا الكائن، الإنسان الذي امتزج تكوينه بهما.

الا أن أحزان الإنسان وأفراحه كانت تبعاً لمقدمات عديدة، منها ما عمل على إيجادها بنفسه فتكون مصحوبة بالندم والحسرة، ومنها ما أوجدها غيره فتكون مصحوبة بالأسى واللوعة.

وهل المتأمل في تاريخ المسلمين لا يغفل عن حقيقة الطفوف كنتيجة اسلفتها مجموعة من المقدمات كان من أعظمها أثراً مأساة باب فاطمة عليها السلام ناهيك عن وصف النبي الأعظم بـ(الهجر) كما ينص البخاري[1]، وجحد بيعة الغدير ببيعة السقيفة.

وغير هذا وذاك مما يطول المقام عنده والأسى في مجرياته واللوعة في نتائجه حينما يقف المسلم عند أرض الطفوف ليرى نار السلف التي أضرمت بها باب فاطمة هي نفسها نار الخلف التي أضرمت خيام أبناء فاطمة.

وجنين هناك، ورضيع هنا.. وصارخة هناك ومعولة هنا...

صور متعددة.. ومشاهد متكرر جرت فيها سنة الله في عباده المرسلين.

«وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ»[2].

ع/ المشرف العام

السيد نبيل الحسني

---

(١) صحيح البخاري، باب: مرض النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ج٥، ص١٣٨، صحيح مسلم: كتاب النذر/ باب الأمر بقضاء النذر: ج٥، ص٧٦.

(٢) سورة الأنعام: ٣٤.

طلب البيعة منه عليه السلام

لما مات معاوية بن أبي سفيان في النصف من رجب سنة ستين من الهجرة، كتب يزيد إلى الوليد بن عتبة بن أبي سفيان - وهو والي المدينة ـ يأمره بأخذ البيعة على أهلها، وخاصة من الحسين عليه السلام.

ولمّا جاء كتابه إلى الوليد استشار مروان بن الحكم، فبعث الوليد عبد الله ابن عمرو بن عثمان إلى الحسين عليه السلام وعبد الرحمن بن أبي بكر وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، فدعاهم فلم يصب القوم في منازلهم، فمضى نحو المسجد فإذا هم عند قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فسلم عليهم، وقال: الأمير يدعوكم فسيروا إليه.

فأقبل عبد الله بن الزبير على الحسين بن علي عليه السلام وقال: يا أبا عبد الله إن هذه ساعة لم يكن الوليد بن عتبة يجلس فيها للناس، وإني قد أنكرت ذلك وبعثه في هذه الساعة إلينا ودعاءه إيّانا لمثل هذا الوقت، أترى في أيّ طلبنا؟

فقال له الحسين عليه السلام: (إذاً أخبرك أبا بكر، إني أظن بأن معاوية قد مات، وذلك إني رأيت البارحة في منامي كأن منبر معاوية منكوس، ورأيت داره تشتعل نارا، فأولت ذلك في نفسي أنه مات).

فقال له ابن الزبير: فاعلم يا ابن علي أن ذلك كذلك، فما ترى أن تصنع إن دعيت إلى بيعة يزيد يا أبا عبد الله؟

قال: (أصنع أني لا أبايع له أبدا، فصنع معاوية ما صنع وحلف لأخي الحسن عليه السلام أنه لا يجعل الخلافة لأحد من بعده من ولده أن يردها إلي إن كنت حيا، فإن كان معاوية قد خرج من دنياه ولم يفيء لي ولا لأخي الحسن عليه السلام بما كان ضمن فقد والله أتانا ما لا قوام لنا به، أنظر أبا بكر أني أبايع ليزيد، ويزيد رجل فاسق معلن الفسق يشرب الخمر ويلعب الكلاب والفهود، ويبغض بقية آل الرسول! لا والله لا يكون ذلك أبدا).

فبينما هما كذلك في هذه المحاورة إذ رجع إليهما الرسول فقال: أبا عبد الله! إن الأمير قاعد لكما خاصة فقوما إليه! قال: فزبره الحسين بن علي عليهما السلام ثم قال: (انطلق إلى أميرك! فمن أحب أن يصير إليه منا فإنه صائر إليه، وأما أنا فإني أصير إليه الساعة إن شاء الله تعالى).

ثم أقبل الحسين عليه السلام على من بحضرته فقال: (قوموا إلى منازلكم فإني صائر إلى هذا الرجل فأنظر ما عنده وما يريد).

فقال له ابن الزبير: جعلت فداك يا ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم! إني خائف عليك أن يحبسوك عندهم فلا يفارقونك أبداً دون أن تبايع أو تقتل.

فقال الحسين عليه السلام: (إني لست أدخل عليه وحدي، ولكن أجمع أصحابي إليّ وخدمي وأنصاري وأهل الحق من شيعتي، ثم آمرهم أن يأخذ كل واحد سيفه مسلولا تحت ثيابه، ثم يصيروا بإزائي، فإذا أنا أومأت إليهم وقلت: يا آل الرسول أدخلوا دخلوا وفعلوا ما أمرتهم به، فأكون على الامتناع، ولا أعطي المقادة والمذلة من نفسي، فقد علمت والله أنه جاء من الأمر ما لا قوام به، ولكن قضاء الله ماض فيّ، وهو الذي يفعل في بيت رسوله ما يشاء ويرضى).

قال ابن الزبير: فإني أخافه عليك إذا دخلت.

قال عليه السلام: (لا آتيه إلا وأنا على الامتناع قادر).

ثم صار الحسين بن علي عليهما السلام إلى منزله، ثم دعا بماء، فلبس وتطهّر بالماء وقام فصلى ركعتين ودعا ربه بما أحب في صلاته؛ فلما فرغ من ذلك أرسل إلى فتيانه وعشيرته ومواليه وأهل بيته فأعلمهم بشأنه، ثم قال: (كونوا بباب هذا الرجل فإني ماض إليه ومكلمه، فإن سمعتم أن صوتي قد علا وسمعتم كلامي وصحت بكم فادخلوا يا آل الرسول واقتحموا من غير إذن، ثم أشهروا السيوف ولا تعجلوا، فإن رأيتم ما تكرهون فضعوا سيوفكم ثم اقتلوا من يريد قتلي).

وقال المفيد: إنه عليه السلام قال لهم: (إن الوليد قد استدعاني في هذا الوقت، ولست آمن أن يكلفني فيه أمرا لا أجيب إليه وهو غير مأمون، فكونوا معي، فإذا دخلت إليه فاجلسوا على الباب فإن سمعتم صوتي قد علا، فادخلوا عليه لتمنعوه عني).

ثم خرج الحسين عليه السلام من منزله وفي يده قضيب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو في ثلاثين رجلا من أهل بيته ومواليه وشيعته، حتى أوقفهم على باب الوليد بن عتبة، ثم قال عليه السلام: (أنظروا ماذا أوصيتكم، فلا تعتدوه، وأنا أرجو أن أخرج إليكم سالماً إن شاء الله).

وفي رواية: إنه عليه السلام قال: (إن سمعتم أمرا يريبكم فادخلوا).

ثم دخل الحسين عليه السلام على الوليد بن عتبة فسلم عليه، فرد عليه ردا حسنا، ثم أدناه وقربه؛ ومروان بن الحكم هناك جالس في مجلس الوليد، وقد كان بين مروان وبين الوليد منافرة ومفاوضة، فأقبل الحسين عليه السلام على الوليد فقال: (الصلة خير من القطيعة، أصلح الله ذات بينكما) فلم يجيباه.

فقال الحسين عليه السلام: (هل أتاكم من معاوية كائنة خبر فإنه كان عليلا وقد طالت علته فكيف حاله الآن)، فتأوه الوليد وتنفس الصعداء وقال: أبا عبد الله، لقد ذاق الموت، وهذا كتاب أمير المؤمنين يزيد! دعوتك للبيعة، فقد اجتمع عليه الناس.

فقال الحسين عليه السلام: (إني لا أراك تقنع ببيعتي ليزيد سرا حتى أبايعه جهرا فيعرف الناس).

فقال له الوليد: أجل.

فقال الحسين عليه السلام: (فتصبح وترى رأيك في ذلك).

فقال الوليد: أبا عبد الله لقد قلت فأحسنت في القول وأحببت جواب مثلك وكذا ظنّي بك، فانصرف راشداً على بركة الله حتى تأتيني غداً مع الناس.

فقال له مروان بن الحكم، والله لئن فارقك الحسين الساعة ولم يبايع لا قدرت منه على مثلها أبداً حتى تكثر القتلى بينكم وبينه، احبس الرجل فلا يخرج من عندك حتى يبايع أو تضرب عنقه، فوثب الحسين عليه السلام وقال: (يا بن الزرقاء أنت تقتلني أم هو؟ كذبت والله وأثمت).

ثم أقبل الحسين عليه السلام على الوليد بن عتبة وقال: (أيها الأمير! إنا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة ومحل الرحمة وبنا فتح الله وبنا ختم، ويزيد رجل فاسق شارب الخمر قاتل النفس المحرمة معلن بالفسق، ومثلي لا يبايع لمثله، ولكن نصبح وتصبحون وننتظر وتنتظرون أينا أحق بالخلافة والبيعة).

وقال الصدوق: إنّ الإمام عليه السلام قال: (يا عتبة قد علمت أنا أهل بيت الكرامة ومعدن الرسالة، وأعلام الحق الذين أودعه الله عزّ وجل قلوبنا، وأنطق به ألسنتنا، فنطقت بإذن الله عزّ وجل، ولقد سمعت جدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: إن الخلافة محرمة على ولد أبي سفيان، وكيف أبايع أهل بيت قد قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذا).

وسمع من بالباب صوت الحسين عليه السلام فهمّوا بفتح الباب وإشهار السيوف، فخرج إليهم الحسين عليه السلام سريعاً فأمرهم بالانصراف إلى منازلهم، وأقبل الحسين عليه السلام إلى منزله، فقال مروان بن الحكم للوليد بن عتبة: عصيتني حتى انفلت الحسين عليه السلام من يدك، أما والله لا تقدر على مثلها أبداً، ووالله ليخرجنّ عليك وعلى أمير المؤمنين، فاعلم ذلك.

فقال له الوليد بن عتبة: ويحك! أشرت عليّ بقتل الحسين عليه السلام وفي قتله ذهاب ديني ودنياي، والله ما أحبّ أن أملك الدنيا بأسرها وأني قتلت الحسين بن علي ابن فاطمة الزهراء عليهم السلام، والله ما أظن أحداً يلقى الله بقتل الحسين عليه السلام إلا وهو خفيف الميزان عند الله، لا ينظر إليه ولا يزكيه وله عذاب أليم، فسكت مروان.

وروى ابن عساكر: قد كان الوليد أغلظ للحسين عليه السلام فشتمه الحسين وأخذ بعمامته فنزعها من رأسه فقال الوليد: إن هجنا بأبي عبد الله إلاّ أسداً فقال له مروان - أو بعض جلسائه - اقتله قال الوليد أن ذلك لدم مضنون في بني عبد مناف.

فلما صار الوليد إلى منزله قالت له امرأته أسماء بنت عبد الرحمن بن الحارث ابن هشام: أسببت حسيناً؟

قال: هو بدأ فسبّني.

قالت: وإن سبّك حسين تسبّه وإن سبّ أباك تسبّ أباه؟ قال: لا.

وأصبح الحسين عليه السلام من الغد خرج من منزله ليستمع الأخبار، فإذا هو بمروان بن الحكم قد عارضه في طريقه، فقال: أبا عبد الله! إني لك ناصح فاطعني ترشد وتسدد.

فقال الحسين عليه السلام: (وما ذلك؟ قل حتى أسمع).

فقال مروان: إني آمرك ببيعة أمير المؤمنين يزيد، فإنّه خير لك في دينك ودنياك.

فاسترجع الحسين عليه السلام وقال: (إنا لله وإنا إليه راجعون وعلى الإسلام السلام إذ قد بليت الأمة براع مثل يزيد)، ثم أقبل الحسين عليه السلام على مروان وقال: (ويحك! أتأمرني ببيعة يزيد وهو رجل فاسق! لقد قلت شططا من القول يا عظيم الزلل! لا ألومك على قولك لأنك اللعين الذي لعنك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنت في صلب أبيك الحكم بن أبي العاص، فإن لعنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يمكن له ولا منه إلا أن يدعو إلى بيعة يزيد).

ثم قال عليه السلام: (إليك عني يا عدو الله؟ فإنا أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والحق فينا وبالحق تنطق ألسنتنا، وقد سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: الخلافة محرّمة على آل أبي سفيان، وعلى الطلقاء أبناء الطلقاء، فإذا رأيتم معاوية على منبري فابقروا بطنه، فو الله لقد رآه أهل المدينة على منبر جدي فلم يفعلوا ما أمروا به، فابتلاهم الله بابنه يزيد! زاده الله في النار عذابا).

فغضب مروان بن الحكم من كلام الحسين، ثم قال: والله! لا تفارقني، أو تبايع ليزيد بن معاوية صاغرا، فإنكم آل أبي تراب قد ملئتم كلاما وأشربتم بغض آل بني سفيان، وحق عليكم أن تبغضوهم وحق عليهم أن يبغضوكم.

فقال له الحسين عليه السلام: (ويلك يا مروان! إليك عني فإنك رجس، وإنّا أهل بيت الطهارة الذين أنزل الله عز وجل على نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا)، فنكس مروان رأسه لا ينطق بشيء، فقال له الحسين عليه السلام: (أبشر يا ابن الزرقاء بكل ما تكره من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يوم تقدم على ربك فيسألك جدي عن حقي وحق يزيد).

فمضى مروان مغضبا حتى دخل على الوليد بن عتبة فخبره بما سمع من الحسين ابن علي عليهما السلام[1].

---

(١) موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ص ٣٧٧ ـ ٣٨٥.

التفسير

الحلقة الثانية

التفسير بوصفه علما

بحثنا في الحلقة السابقة حول التفسير بمعناه اللغوي وأهمية التمييز بين تفسير اللفظ وتفسير المعنى، أما التفسير بوصفه علما فهو علم يبحث فيه عن القرآن الكريم بوصفه كلاماً لله تعالى.

وتوضيح ذلك: أن القرآن الكريم له عدة اعتبارات: فهو تارة يلحظ بوصفه حروفاً كتابية ترسم على الورق، وأخرى: يلحظ بوصفه أصواتاً نقرأها ونرددها بلساننا، وثالثة: يلحظ بوصفه كلاماً لله تعالى.

والقرآن الملحوظ بأي واحد من هذه الاعتبارات يقع موضوعاً لعلم يتكون من بحوث خاصة به.

فالقرآن من حيث أنه حروف كتبت موضوع لعلم الرسم القرآني الذي يشرح قواعد كتابة النص القرآني.

والقرآن من حيث أنه يقرأ موضوع لعلم القراءة وعلم التجويد.

والقرآن من حيث أنه كلام الله يقع موضوعاً لعلم التفسير.

فعلم التفسير يشتمل على جميع البحوث المتعلقة بالقرآن بوصفه كلام الله، ولا يدخل في نطاقه البحث في طريقة كتابة الحرف، أو طريقة النطق بصوته، لأن الكتابة والنطق ليسا من صفات نص القرآن بوصفه كلاماً لله، إذ ليس لكونه كلاماً لله دخل في كيفية كتابته أو قراءته.

وإنما يدخل في علم التفسير على ضوء ما ذكرناه له من تعريف البحوث الآتية:

أولاً: البحث عن مدلول كل لفظ أو جملة في القرآن الكريم، لأن كون هذا المعنى أو ذاك مدلولاً للفظ القرآني من صفات القرآن بوصفه كلاماً لله، وليس من صفات الحروف أو أصواتها بما هي حروف أو أصوات.

ثانيا: البحث عن إعجاز القرآن والكشف عن مناحي الإعجاز المختلفة فيه، فإن الإعجاز من أوصاف القرآن بوصفه كلاما دالاً على المراد.

ثالثا: البحث عن أسباب النزول، لأن الآية حين تدرس سبب نزولها نلاحظها بما هي كلام، أي بما هي لفظ مفيد دال على معنى، لأن ما لا يكون كلاماً ولا يدل على معنى، لا يرتبط بحادثة معينة لتكون سببا لنزول الآية.

رابعاً: البحث عن الناسخ والمنسوخ، والخاص والعام، والمقيد والمطلق، فإن كل ذلك يتناول النص القرآني بوصفه كلاماً دالاً على معنى.

خامساً: البحث عن أثر القرآن في التاريخ ودوره العظيم في بناء الإنسانية وهدايتها، فإن أثر القرآن ودوره مردهما إلى فعالية القرآن بوصفه كلاماً لله لا بوصفه مجرد حروف تكتب أو أصوات تقرأ.

إلى غير ذلك من البحوث التي ترتبط بالقرآن بوصفه كلاماً لله تعالى.

ومن خلال تعريف علم التفسير نحدد موضوعه أيضاً وهو (القرآن) من حيث كونه كلاماً لله تعالى.

وعلى هذا الضوء نعرف أن إطلاق اسم علم (الناسخ والمنسوخ) أو علم (أسباب النزول) أو علم (إعجاز القرآن): على البحوث المتعلقة بهذه المواضيع، لا يعني عدم إمكان إندراجها جميعا في نطاق علم واحد باسم علم: (التفسير) فهي في الحقيقة جوانب من هذا العلم لوحظ في كل جانب منها تحقيق هدف خاص يتعلق بالبحث في ناحية خاصة من كلام الله ففي علم (إعجاز القرآن) يدرس كلام الله في القرآن مقارناً بالنتاج البشري أو بالإمكانات البشرية، ليدلل على أنه فوق تلك الإمكانات وهو معنى الإعجاز، وفي علم (أسباب النزول) يدرس كلام الله في القرآن من حيث ارتباطه بالأحداث والوقائع التي لابست نزوله، وهكذا الأمر في سائر الجوانب الأخرى.

وإنما أفردت هذه الأسماء وأعطيت عناوين مستقلة باعتبار أن العلماء بعد التوسع في علم التفسير أفردوها أحياناً بالبحث للتركيز على الأهداف التفصيلية لها كما صنعوا ذلك في آيات الأحكام وفي القصص والأمثال وأسلوب القرآن وغيرها، مع أن هذه الأبحاث وجدت في رحم علم التفسير وتربت في أحضانه.

الشروط التي يجب توافرها في المفسّر

والتفسير بوصفه علماً تتوقف ممارسته على شروط كثيرة لا يمكن بدونها أن ينجح البحث في القرآن، ويوفّق المفسّر في مهمته، ويمكن أن نلخص تلك الشروط في الأمور الأربعة التالية:

١- يجب على المفسّر أن يدرس القرآن ويفسّره بذهنية (إسلامية) أي ضمن الإطار الإسلامي للتفكير، فيقيم بحوثه دائماً على أساس أن القرآن كتاب إلهي أنزل للهداية وبناء الإنسانية بأفضل طريقة ممكنة، ولا يخضع للعوامل والظروف والمؤثرات التي يخضع لها النتاج البشري في مختلف حقول المعرفة الإنسانية، فإن هذا الأساس هو الأساس الوحيد لإمكان فهم القرآن وتفسير ظواهره بطريقة صحيحة.

وأما حين يستعمل المفسّر في دراسة القرآن نفس المقاييس التي يدرس على ضوئها أي كتاب دعوة أخرى، أو أي نتاج بشري، فهو يقع نتيجة لذلك في أخطاء كبيرة واستنتاجات خاطئة، كما يتفق ذلك لبحوث المستشرقين الذين يدرسون القرآن على ضوء نفس المقاييس التي يدرسون بها أي ظاهرة من ظواهر المجتمع التي تنشأ في داخله وترتبط بمؤثراته وعوامله وتتكيف بموجبها.

وهذا الشرط تفرضه طبيعة الموقف العلمي لأن المفهوم الذي يكوّنه المفسّر عن القرآن، ككل يشكّل القاعدة الأساسية لفهم تفصيلاته، ودرس مختلف جوانبه، فلابد أن يبنى التفسير على قاعدة سليمة ومفهوم صحيح عن القرآن، يتفق مع الإطار الإسلامي للتفكير، لكي يتجه اتجاهاً صحيحاً في الشرح والتحليل، وأما إذا أقيم التفسير على أساس تقييم خاطئ للقرآن ومفهوم غير صحيح عنه، فسوف ينعكس انحراف القاعدة على التفصيلات، ويفرض على اتجاه البحث انحرافاً في التحليل والاستنتاج.

وفيما يلي نذكر بعض الأمثلة التي يتجلى فيها مدى الفرق في الاتجاه بين دراسة القرآن بوصفه كتاباً إلهياً للهداية، ودراسته بوصفه ظاهرة في مجتمع تتأثر به، وتتفاعل مع عوامله ومؤثراته، وكيف تنعكس القاعدة التي يقام على أساسها التفسير في التفصيلات وطريقة التحليل والاستنتاج؟

ألف: ففي إقرار القرآن لعدد من الأعراف والألوان من السلوك التي كانت سائدة بين العرب قبل بزوغ نور الرسالة الجديدة، قد يخيّل لمن ينطلق من قاعدة خاطئة، ويحاول أن يفسّر القرآن بمقاييس غيره من منتجات الأرض أن ذلك الإقرار يعبّر عن تأثر القرآن بالمجتمع الذي وجد فيه، ولكن هذا التفسير لا معنى له حين ننطلق من القاعدة الصحيحة ونفهم القرآن الكريم بوصفه كتاباً إلهياً للهداية وبناء الإنسانية، بالصورة التي تعيد إليها فطرتها النقية وتوجهها نحو أهدافها الحقيقية الكبرى.

بل نستطيع على أساس هذه القاعدة الصحيحة أن نفهم ذلك الإقرار من القرآن فهما صحيحا، إذ ليس من الضروري لكتاب هداية من هذا القبيل أن يشجب كل الوضع الذي كانت الإنسانية عليه قبله، لأن الإنسانية مهما تفسد وتنحرف عن طريق الفطرة والأهداف الحقيقية الكبرى فهي لا تفسد كلها، بل تبقى في العادة جوانب صالحة في حياة الإنسانية تمثل فطرة الإنسان أو تجاربه الخيّرة، فمن الطبيعي للقرآن أن يقرّ بعض الجوانب ويشجب أكثر الجوانب في عملية التغيير العظيم التي مارسها، وحتى هذا الذي أقرّه وضعه في إطاره الخاص وربطه بأصوله وقطع صلته بالجاهلية وجذورها.

باء: وفي تدرج القرآن الكريم في التشريع قد يخيّل لمن ينطلق من القاعدة الخاطئة التي تقول ببشرية القرآن يرتبط بطبيعة عملية البناء التي يمارسها القرآن، لأن القرآن لم ينزل ليكون كتاباً علمياً يدرسه العلماء، وإنما نزل لتغيير الإنسانية وبنائها من جديد على أفضل الأسس وعملية التغيير تتطلّب التدرّج.

جيم: وفي القرآن الكريم نجد كثيراً من التشريعات والمفاهيم الحضارية التي كانت متبناة من قبل الشرائع السماوية الأخرى كاليهودية والنصرانية، وقد يخيّل لمن يدرس القرآن على أساس القاعدة الخاطئة بأن القرآن قد تأثر وانفعل في ذلك بهذه الأديان فانعكس هذا الانفعال بالتالي على القرآن نفسه.

ولكن الواقع - على أساس المفهوم الصحيح - أن القرآن يمثل الإسلام الذي هو امتداد لرسالة السماء وخاتمها، ومن الطبيعي أن تشتمل الرسالة الخاتمة على الكثير مما احتوته الرسالات السماوية السابقة وتنسخ الجوانب التي تتلاءم مع التطورات النفسية والفكرية والاجتماعية للمرحلة التي وصل إليها الفرد الإنساني بشكل عام، لأن مصدر الرسالات هذه كلها شيء واحد وهو الله سبحانه، خصوصاً إذا أخذنا بنظر الاعتبار إيمان الإسلام بهذه الوحدة في مصدر الرسالات وتأكيده عليها.

٢- وبعد سلامة القاعدة الأساسية في فهم القرآن وتقييمه يجب أن يتوفر في المفسّر مستوى رفيع من الاطّلاع على اللغة العربية، ونظامها، لأن القرآن جاء وفق هذا النظام، فما لم تكن لدينا صورة عن النظام العام للّغة العربية لا نستطيع أن نستوعب معاني القرآن.

فيحتاج المفسّر إلى الإطلاع على علم النحو، والصرف، والمعاني، والبيان وغيرها من العلوم العربية، والقدر اللازم توفره من هذا الشرط، يختلف باختلاف الجوانب التي يريد المفسّر معالجتها من القرآن الكريم، فحين يريد أن يدرس فقه القرآن مثلا، لا يحتاج إلى التعمق في أسرار اللغة العربية بالدرجة التي يحتاجها المفسّر، إذا أراد أن يدرس الفن القصصي في القرآن أو المجاز في القرآن مثلاً.

٣- ولابد للمفسّر أن يحاول إلى أكبر درجة ممكنة الاندماج كليا في القرآن عند تفسيره... ونقصد بالاندماج في القرآن أن يدرس النص القرآني ويستوحي معناه دون تقييد مسبق باتجاه معين غير مستوحى من القرآن نفسه، كما يصنع كثير من أصحاب المذاهب الذين يحاولون في تفسيرهم إخضاع النص القرآن لعقيدتهم المذهبية فلا يدرسون النص ليكتشفوا اتجاهه بل يفرضون عليه اتجاههم المذهبي ويحاولون فهمه دائماً ضمن إطارهم العقائدي الخاص، وهذا ليس تفسيراً وإنما هو محاولة تبرير للمذهب وتوفيق بينه وبين النص القرآني، ولهذا كان من أهم الشروط في المفسّر أن يكون بدرجة من التحرّر الفكري تتيح له الاندماج بالقرآن، وجعله قاعدة لتكوين أي إطار مذهبي بدلاً عن جعل الاتجاه المذهبي المحدد قاعدة لفهم القرآن.

٤- وأخيراً لابد للمفسّر من منهج عام للتفسير، يحدد فيه عن اجتهاد علمي طريقته في التفسير، ووسائل الإثبات التي يستعملها، ومدى اعتماده على ظهور اللفظ، وعلى نصوص السنّة، وعلى إخبار الآحاد، وعلى القرائن العقلية في تفسير النص القرآني، لأن في كل واحدة من هذه الأمور خلافاً علمياً، ووجهات نظر عديدة، فلا يمكن ممارسة التفسير دون درس تلك الخلافات درساً دقيقاً، والخروج من هذه الدراسة بوجهات نظر معينة تؤلّف المنهج العام للمفسّر، الذي يسير عليه في تفسيره، ولما كانت تلك الخلافات تتصل بجوانب من الأصول والكلام والرجال وغيرها، كان لزاماً على المفسّر لدى وضعه للمنهج ودراسته لتلك الخلافات أن يكون ملمّاً إلماماً كافياً بتلك العلوم(1).

---

(١) علوم القرآن، محمد باقر الحكيم: ص٢٤٥ - ٢٤٨، وص ٢٦٧ - ٢٧٠.

الحلقة الأولى

شبهات أثيرت حول كتاب نهج البلاغة

كتاب نهج البلاغة لا يختلف اليوم عن الأمس؛ لأنه بلغ في سماء البلاغة محل الشمس، عشت عنها عيون، وحييت بأشعّتها معارف وفنون عبر القرون، فإنّه الكتاب الوحيد الذي جمع بأسلوب فريد روايات منتقاة من خطب ورسائله وحكمه الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

وقد حظي نهج البلاغة عبر القرون من الاهتمام بالنسخ والشرح والتعليق والإجازة بعناية بالغة من قبل أعلام البلاغة والأدب، وتداوله علماء أهل البيت جيلاً بعد جيل.

ومنذ صدور الكتاب ظهرت محاولات التشكيك في النسبة والجامع بسبب الصراع المذهبي، ولا يزال صداها يرنّ بين فترة وأخرى بالرغم من أن الشريف الرضي شرح أسلوبه في الجمع وأحال إليه في كتبه الأخرى، ورواه عنه طائفة من علماء أهل البيت عليهم السلام وغيرهم بأسانيدهم المتصلة، ودراساتهم الممتعة كما ينبئ عن ذلك نظرة عابرة إلى الأعمال حول نهج البلاغة عبر القرون.

وقد تمحورت هذه التشكيكات حول محاور ستة نستعرضها فيما يلي إجمالا ثم نرد عليها بحسب ما يقتضيه المقام، وهذه المحاور هي:

الشبهة الأولى

حاول المشككون إثارة شبهة مفادها هو: (خلوّ الكتب الأدبية والتاريخية التي ظهرت قبل الشريف الرضي من كثير مما في نهج البلاغة مما يعني أن الشريف الرضي قد ادخل فيه من عند نفسه كثيرا مما ليس من كلام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام).

والجواب هو: ان ما ورد في الكتب الأدبية والتاريخية المؤلفة قبل ظهور نهج البلاغة من كلام الإمام، فلعله لم يرد إلّا على سبيل التمثيل والاستشهاد، لا على سبيل الاستقراء والاستقصاء؛ إذ لم تؤلف من أجل ذلك الغرض خاصة. ولعلّ تلك المثل كانت هي المتداول المشهور من كلامه، فلا ينافي أن يكون له غيرها. وفي مروج الذهب للمسعودي المتوفى سنة ٣٤٦ هـ أي قبل مولد الشريف الرضي بثلاث عشرة سنة، ما نصه: والذي حفظ الناس عنه من خطبه في سائر مقاماته أربعمائة خطبة، يوردها على البديهة، تداول الناس ذلك عنه قولاً وعملاً. (انظر مروج الذهب ج٢ ص٣٣).

الشبهة الثانية

وحاول آخرون التشكيك في تلك الخطب بحجة أن (ما ورد فيه من الأفكار السامية والحكم الدقيقة مما لا يصح نسبته إلى عصر الإمام).

وقد أجاب أحمد زكي في كتابه (علي بن أبي طالب ص١٢٢) عن هذه الشبهة بما يلي: «أما هذه الشبهة فباطلة داحضة، واننا قبل أن نتعرض لدحضها نتساءل: هل في فكر الإمام وحكمه نظريات فلسفية يعتاص على الباحث فهمها ويفتقر في درسها إلى كدّ ذهن وكدح خاطر. اللهم لا، إنّها حكم سائغة مرسلة تمتزج بالروح من أقرب طريق وتدبّ إلى القلب دون تعمل أو عناء، وليس أحد يماري في أنّ إيراد العرب للحكمة البالغة وضربهم الأمثال الرائعة فطري فيهم، معروف عنهم منذ جاهليتهم، لما أوتوه من صفاء الذهن واتّقاد القريحة وسرعة الخاطر، وقد اشتهر كثير منهم بذلك قبل الإسلام، أفتستكثر الحكمة السامية على عليّ، وهو - من علمت - سليل قريش

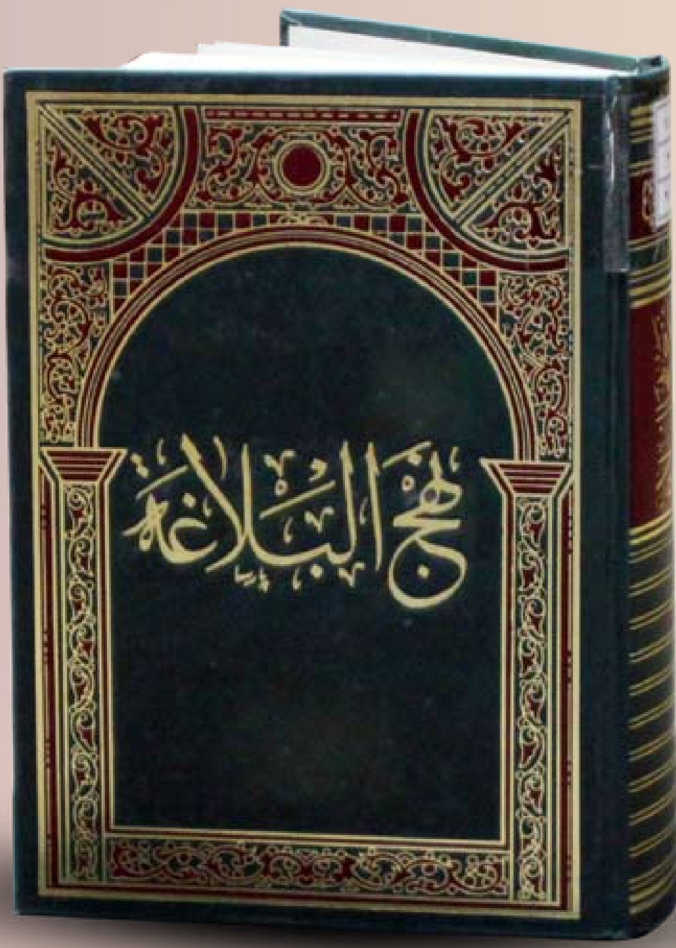

الذين كانوا أفصح العرب لساناً وأعذبها بياناً وأرقّها لفظاً وأصفاها مزاجاً وألطفها ذوقاً، وقد قدّمنا لك أنه ربي في بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم منذ حداثته فنشأ وشب في بيت النبوة مهد الحكمة وينبوعها، ولازم الرسول حتى مماته، وقد قال علي - عليه السلام - في بعض خطبه: «كنت اتبعه إتباع الفصيل إثر أمه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً ويأمرني بالاقتداء به».

وكان من كبار كتاب وحيه، وحفظ القرآن كله حفظاً جيداً، وسمع الحديث الشريف ووعاه، وتفقّه في الدين حتى كان إماماً هادياً عالماً عليماً، وفوق ذلك فأنت تعلم ان الشدائد ثقاف الأذهان وصقال العقول تفتّق عن مكنون الحكمة وتستخرج عصيها وقد مرّ بالإمام الحينُ من عمره حافل بالشدائد، مليء بالعظائم والأهوال، وحسبه أن يحمل مع ابن عمه صلى الله عليه وآله وسلم أعباء أمره، ويبيت في فراشه ليلة هجرته متعرّضاً لأذى المشركين الراصدين للرسول، وأن يخوض غمار الحرب في كل غزواته ـ إلاّ واحدة ـ ثم هو يقضي طوال خلافته مذ بويع إلى أن قتل (أربع سنين وتسعة أشهر) في شجار ونضال وجلاد وكفاح، تارة مع عائشة ومناصريها، وأخرى مع معاوية وأشياعه ثم يبتلى بخلاف أصحابه عليه، ويعاني من اختلاف مشاربهم وتباين أهوائهم وغريب شذوذهم وتحكّمهم، واعتسافهم ما يضيق عنه صدر الحليم، ويندّ معه صبر الصبور. كل أولئك التجارب والظروف قد حنّكته، وصفت من جوهر عقله، وثقّفت من حديد ذهنه، وأمدّته بفيض زاخر من الحكم الثاقبة والآراء الناضجة، وما العقل إلاّ التجربة والاختبار».

فضلا عن أنه كان معروفاً بين الصحابة بأصالة الرأي وسداد الفكر، فكان بعض الحكام الذين سبقوا خلافته يفزع إلى مشورته إذا حزبه أمر فيجيد الحز ويطبّق المفصل. ولم يكن رضي الله عنه بالرجل الخامل الغمر، بل كان من سادة القوم وعليتهم، فكان كل ما يجري من الشؤون السياسية في عهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وعهد السابقين له بمرأى منه ومسمع، بل كان له في بعضها ضلع قوية وشأن خطير. هذا المران السياسي الطويل العهد ـ وهو خمس وثلاثون سنة من بدء الهجرة، عدا ما تقدمها - أفاده شحذاً في الذهن وثقوباً في الفكر. فليس بمستنكر على مثل عليّ أن يكون حكيماً».

الشبهة الثالثة

وقد حاول آخرون التشكيك في خطب نهج البلاغة بحجة: (أن فيه إطالة الكلام وإشباع القول في بعض الخطب والكتب كما في عهد الأشتر النخعي المسهب المطنب المشتمل على كثير من الحيطة والحذر والتوكيدات والمواثيق، فضلاً عن أنّ فيه من النظرات السياسية والقواعد العمرانية ما لم يكن معروفاً في عصر الإمام).

ولا يخالج نفوسنا الشك في صحة انتساب تلك الخطب والكتب والرسائل الموجودة في كتاب نهج البلاغة على طولها مثل عهد الأشتر، وما ورد فيه من النظريات السياسية والقواعد العمرانية؛ لا نستبعد صدور مثلها من الإمام عليه السلام.

وهو الخبير المحنك، وهو الإمام العالم وارث علم الأنبياء، على أن تلك النظريات والقواعد الواردة فيه ليست مما يعسر تناوله، أو لا يبلغ شأوه، وفي مقدور من هو دون الإمام فكراً ورأياً وتدبيراً أن يصوغ مثل حلاها، وهل عزب عنك أن العرب قبل خلافة الإمام فتحوا ممالك الأكاسرة والقياصرة وأدانوها لحكمهم، وهي ممالك ذات حضارة ومدنية؟ إذن كان طبيعياً أن يتناول الخليفة في كلامه المسائل العمرانية والاجتماعية.

وأنت إذا تأملت نصيحته للأشتر في هذا العهد فيما يختص بالجنود والعمال والقضاة والكتاب والخراج والتجّار وذوي الصناعات. الخ، لم تلف فيه معنى ملتاثاً، ولا قاعدة يشقّ تفهّمها، بل هي نصائح حكيمة بعيدة عن الالتواء الفلسفي والتعقيد النظري[1].

---

(1) إرشاد المؤمنين إلى معرفة نهج البلاغة المبين: ص٥٧ - ٦١.

حرمة اللعب بالشطرنج وأمثاله من أدوات القمار

عـن أبـي بصير عن أبـي عبد الله عليه الصـلاة والسـلام قـال: (بيـع الشـطرنج حـرام، وأكل ثمنـه سـحت وإنحاتها كفر واللعب بها شـرك والسلام على اللاهي بها معصيـة وكبيرة موبقـة والخائض يده فيها كالخائـض يده في لحـم الخنزير ولا صلاة لـه حتّـى يغسـل يده كمـا يغسـلها من مس الخنزير والناظر إليها كالناظر في فرج أمّه واللاهي بها والناظر إليها في حال ما يلهى بها والسلام على اللاهي بها في حالته تلك في الإثـم سـواء ومن جلس علـى اللعب بها فقد تبوّأ مقعده من النار وكان عيشـه ذلك حسـرة عليه يوم القيامة وإيّاك ومجالسـة اللاهـي المغـرور بلعبهـا فإنه مـن المجالس التي قد باء أهلها بسخط من الله يتوقعونه كلّ سـاعة فيعمّك معهم) (وسـائل الشـيعة للحر العاملي ج١٧ ص٣٢٣).

تعريف الشطرنج

الشـطرنج آلـة مركّبـة عـن سـت قطع معـدّة للّعـب بهـا، قيـل: إنهـا كلمـة معرّبة عن الفارسـية وأصلها شـش رنك أي (ستة ألوان).

قال في (المنجد): الشطرنج شطرنجات لعبة مشـهورة معرّب شـش رنك بالفارسية أي سـتة الـوان وذلك لأن له سـتة أصناف مـن القطـع التي يلعب بها فيه وهي الشـاه والفرزان والفيـل والفرس والرخ والبيدق[1] ونقـل محمـد بن محمـود الآملـي في كتابه (نفائس الفنون): إن واضع الشـطرنج أحد حكماء الهند اسمه صهصهة بن داهر وعرّفه وأظهـره في الملأ ابنه المسـمّى بلحلاج، وفي سـبب اختراعـه وإظهـاره نقـل قصّـة ولا يهمّنا نقلها فراجع الكتاب المذكور، فانتشر الشـطرنج أوّلاً في بـلاد الهنـد ولمّا انتشـر صيت كسـرى أنوشـيروان وعظـم قدره في البلاد قام ملك الهند بإرسال هدايا نفيسة لكسـرى انوشـيروان ومـن جملتهـا آلات الشـطرنج وذكر لـه فوائد إذا حـاذق بلعبه ومنهـا تشـحيد الذهن وزيـادة البصيرة في الأمـور خصوصـاً في الحـروب وغلبته على العـدو وفي أوقـات الفـراغ الاشـتغال بلعبه موجـب ليسـتريح مـن التعـب ورفـع الآلام وغيرهـا، واسـتدعى من كسـرى لو كان في وزرائـه أو حكمـاء مملكته أحـد أن يخترع نظير الشـطرنج أن يرسـل إليـه ليفتخر به على أوسـاط مملكته، ثمّ أرسل انوشيروان إلى بوذرجمهـر أحد حكمائه ووزرائه وأراه الشـطرنج فاختـرع لـه (النـرد) وقيـل إنّ اختـراع النـرد كان قبـل وجـود الشـطرنج فأرسـله إلى الهند، ثمّ نقل صاحب الكتاب أنواع الشطرنج منها المسمّى بذات الحصون لها عشـرة خانـات في عشـرة مربعات وفي كلّ ضلـع من أضلاعـه الأربعة خانة بمنزلة برج للحصن، ومنها مربعات أربعة في ستة عشـر، ومنهـا علـى شـكل دائـرة في دائرة أخـرى، ومنهـا دائـرة وضعـت على سـبعة كواكـب واثنى عشـر بروج، ومنها شـطرنج كبـير زادوا علـى آلاتـه الأسـد والزرافـة وغيرهما[2].

أدلة حرمة اللعب بالشطرنج وأمثاله

وأمّـا حرمة اللعب بها وبيعها وشـرائها فقد دلّ عليها ما يلي:

ألف: الشهرة بل الإجماع

أمّا الإجماع فادّعاه كثير من المتقدّمين وأكثر المتأخرين، ففي الرياض قال: الثاني (مـن أنـواع المحرّمـات) الآلات المحرّمـة كالعـود إلى أن قـال وآلات القمـار كالنـرد والشـطرنج وغيرهما بإجماعنا المستفيض النقـل في كلام جماعـة مـن أصحابنا وهو الحجة، انتهى.

وفي الجواهـر بعـد نقـل عـدم الخلاف بـل الإجماع بقسـميه علـى حرمـة القمار وحرمـة المال الـذي يؤخذ به، قال: (بل قيل إنّ أصـل القمـار الرهن على اللعب بشـيء مـن آلاته كما هو ظاهـر القاموس والنهاية أو صريحهمـا وصريح مجمـع البحرين.نعم عن ظاهر الصحاح والمصباح المنير وكذلك التكملة والذيل إنّه قد يطلق على اللعب بها مطلقـا مع الرهـن ودونه ولا فـرق في ذلك بـين الشـطرنج والنـرد وبـين غيرهمـا من أفراده كلعبة الأمير والثلاثة والأربعة عشر الجوز والبيض والكعاب ونحوها ممّا أعتيد

المقامرة به سابقاً أو لاحقاً) انتهى محل الحاجة من كلامه.

باء: الأدلة القرآنية على حرمة اللعب بالشطرنج وأمثاله

والعمدة الاستدلال بالأخبار المستفيضة منها هذا الخبر المنقول عن جامع البزنطي المؤيّد مضمونه بما رواه الصدوق في الفقيه قال: سئل الصّادق عليه السلام عن قول الله عزّ وجل: «فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ».(٣)

فقال عليه السلام: (الرجس من الأوثان الشطرنج، وقول الزور الغناء، والنرد أشد من الشطرنج، فأمّا الشطرنج فاتخاذها كفر واللعب بها شرك وتعليمها كبيرة موبقة والسلام على اللاهي بها معصية ومقلبها كمقلّب لحم الخنزير والناظر إليها كالناظر إلى فرج أمه واللاعب بالنرد قماراً مثله مثل من يأكل لحم الخنزير ومثل من يلعب بها من غير قمار مثل من يضع يده في لحم الخنزير أو في دمه)، الخبر.

جيم: الأحاديث الدالة على حرمة اللعب بالشطرنج وأمثاله

عن ابن رئاب قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام فقلت: جعلت فداك ما تقول في الشطرنج؟ قال: (المقلب لها كالمقلب لحم الخنزير)، فقلت: ما على من قلّب لحم الخنزير؟ قال: يغسل يده).

وعن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: (المطّلع في الشطرنج كالمطلع في النار).

وبإسناد صحيح قال: دخل رجل من البصريين على أبي الحسن الأول عليه السلام قال: جعلت فداك إنّي أقعد مع قوم يلعبون الشطرنج ولست ألعب بها ولكن أنظر؟ فقال: (مالك ولمجلس لا ينظر الله إلى أهله).

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (من لعب بالنرد فقد عصى الله ورسوله).

وفي العوالي قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (اللاعب بالنرد كمن غمس يده في لحم الخنزير ودمه).

وفي الفقيه في حديث المناهي قال: ونهى النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن بيع النرد.

قال الصدوق في كتاب المقنع بعد نقل نهي الصادق عن اللعب بالنرد وإنّ مثل من يلعب به كمثل من يأكل لحم الخنزير: (واعلم أن الشطرنج قد روي فيه نهي وإطلاق ولكنّي رويت أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إذا ورد عليكم حديثان مختلفان فاعرضوهما على كتاب الله فما وافق كتاب الله فخذوه وما خالف كتاب الله فذروه، فوجدنا الله يقول في كتابه: «فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ».

وعن الخصال بإسناده عن عبد الواجد ابن المختار قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن اللعب بالشطرنج فقال: (إنّ المؤمن لمشغول عن اللعب).

ماذا يمكن أن يستفاد من هذه الأحاديث الشريفة؟

ولنذكر هنا ما يستفاد من هذه الأحاديث الشريف:

أولا: قوله: (بيع الشطرنج حرام)، المراد نفس المعاملة بيعاً كان أو شراءً، والشطرنج هو الآلة المخصوصة فإذا كانت منفعته منحصرة بالقمار كما هو المفروض فالمعاملة عليه مع كونها حراماً باطلة أيضاً فيكون أكله حراماً فيشمله قوله تعالى: «لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ».(٤)

ثانيا: قوله: (وأكل ثمنه سحت). هذا تأكيد للحرمة وإشارة إلى بطلان البيع، والسحت كناية عن غلظة الحرمة وشدّتها لأنّ اشتقاقه من الاستيصال يقال سَحَّته أي استأصله إنّما يسمّى الحرام به لأنه يعقبه العذاب الاستيصال.

ثالثا: قوله: واتخاذها كفر واللعب بها شرك. الضمير في اتخاذها يرجع إلى الآلة المستفادة من الشطرنج، ولفظ الكفر والشرك في هذه الموارد مبالغة في التحريم لغير المستحل لها وإلاّ فعلى حقيقته.

رابعا: قوله: (والسلام على اللاهي بها معصية وكبيرة موبقة). والسلام عليه حالة العمل باللهو بها يمكن أن يكون حراماً لكون السلام موجبا لإيجاد المحبة والسلم والمحبة للعاصي في حال عصيانه مبغوضة للمولى إلاّ أن يكون رادعاً عنه وكذلك في حالة عدم الاشتغال بها إذا كان السلام كاشفاً لمحبته بما هو فاسق متجاهر، وإمّا في غير المتجاهر فلفظ المعصية يحمل على المبالغة في الكراهة لأنّ السلام على المسلم مطلقاً مستحب إلا أن يكون فاسقاً متجاهراً فلا سلام إلا تقية، ومعنى كبيرة موبقة أيّ مهلكة وهذا أيضاً يُراد بها المبالغة لغير المستحل وفيه مبالغة في الحرمة.

خامسا: قوله: (والخائض يده.... الخ). شبّه قذارته المعنوية بالقذارة الظاهرية في لحم الخنزير، وإنّما شبّه به دون الكلب مع أنّه أيضاً نجس العين لأنّ الخنزير عند العرف والشرع أشدّ تنفراً منه.

سادسا: قوله: (ولا صلاة له حتّى يغسل يده). لعلّه إشارة إلى عدم قبول صلاته حتّى يتوب ويرجع عن عمله كما يجب على من مس لحم الخنزير إذا أراد الصلاة أن يغسلها حتّى تصحّ صلاته، وباقي جملات الحديث محمول على شدّة المبالغة في التحريم.

نعم الجلوس معهم في مقام النهي عن المنكر، وكذا النظر والسلام لجهة الردع والنهي عنه لا حرمة فيه، بل قد يجب إن أحتمل التأثير.

سابعا: وقوله في ذيل الحديث: (وإيّاك ومجالسة اللاهي المغرور بلعبها) تأكيد وتوبيخ ومبالغة في تحريم مجالستهم ومعاشرتهم وتصريح بحرمة خصوص اللعب بها وليس وجود الرهان مصبّاً للكلام في هذا الحديث بل هو أمر آخر داخل في المقامرة الّتي لا كلام في حرمتها، فالحديث الشريف بشراشره متكفّل لحرمة اللعب بالشطرنج وحرمة المعاملة بآلاتها وحرمة مجالستهم وإعانتهم والسلام عليهم والنظر إلى لعبهم أو النظارة في لعبهم ومعاشرتهم حتّى الحضور لمحل لعبهم، وكلّ ذلك لا ربط له بمال الرهان والمقامرة وإطلاق الميسر على الشطرنج كما في بعض الأخبار أو القمار ونحوه باعتبار الأغلب فإنّ الغالب عند أوساط الناس تشكيل مجلس الشطرنج مع المراهنة بخلاف مجالس الأعيان والسلاطين فإنّ المهم عندهم نفس اللعب بها والمغالبة على الحريف وهذا الذي أنكره الإسلام وجعله باطلاً لتضييع الأوقات وغير ذلك من المفاسد المترتّبة عليها.(٥)

(١ و٢) نقلاً عن كتاب الأربعون حديث للشيخ محمدعلي احمديان: ص١٣٠.

(٣) سورة الحج، الآية: ٣٠.

(٤) سورة النساء، الآية: ٢٩.

(٥) الأربعون حديث للشيخ محمد علي أحمديان: ص١٢٩ ـ ١٤٠.

أجناس الرذائل وأنواعها

قد تلخص مما ذكر سابقة: أن الفضيلة في جميع الأخلاق والصفات إنما هو المساواة من غير زيادة ونقصان، مع أنه قد ثبت أن التفضل محمود وهو زيادة، فلا يدخل تحت العدالة الراجعة إلى المساواة.

(قلنا): التفضل احتياط يقع لتحصيل القطع بعدم الوقوع في النقصان، وليس الوسط في طرفين من الأخلاق على نهج واحد فإن الزيادة في السخاء إذا لم يؤد إلى الإسراف أحسن من النقصان عنه، وأشبه بالمحافظة على شرائطه، فالتفضل إنما يصدر عن فضيلة العدالة، لأنها مبالغة فيها ولا يخرجها عن حقيقتها، إذ المتفضل من يعطي المستحق أزيد مما يستحقه، وهذه الزيادة ليست مذمومة، بل هي العدالة مع الاحتياط فيها.

ولذا قيل: (إن المتفضل أفضل من العادل)، والمذموم أن يعطي غير المستحق أو يترك المساواة بين المستحقين، لأنه أنفق فيما لا ينبغي أو على ما لا ينبغي، وصاحبه لا يسمى متفضلاً بل مضيعاً، ولكون التفضل احتياطاً إنما يحسن من الرجل بالنسبة إلى صاحبه في المعاملة التي بينهما، ولو كان بين جماعة ولم يكن له نصيب في ما يحكم فيه لم يسعه إلا العدل المحض ولم يجز له التفضل.

إصلاح النفس قبل إصلاح الغير

قد تلخص أن حقيقة العدالة أو لازمها أن يغلب العقل الذي هو خليفة الله على جميع القوى حتى يستعمل كلاً منها فيما يقتضي رأيه، فلا يفسد نظام العالم الإنساني، فإن الواجب سبحانه لما ركب الإنسان بحكمته الحقة ومصلحته التامة من القوى الكثيرة المتضادة، فهي إذا تهايجت وتغالبت ولم يقهرها قاهر خير، حدثت فيه بهيجانها واضطرابها أنواع الشر، وجذبه كل واحدة منها إلى ما يقتضيه ويشتهيه، كما هو الشأن في كل مركب.

وقد شبه المعلم الأول مثله بمن يجذب من جهتين حتى ينقطع وينشق بنصفين أو من جهات كثيرة فيتقطع بحسبها، فيجب على كل إنسان أن يجاهد حتى يغلب عقله الذي هو الحكم العدل والخير المطلق على قواه المختلفة، ليرفع اختلافها وتجاذبها ويقيم الجميع على الصراط القويم.

ثم كل شخص ما لم يعدل قواه وصفاته لم يتمكن من إجراء أحكام العدالة بين شركائه في المنزل والبلد، إذ العاجز عن إصلاح نفسه كيف يقدر على إصلاح غيره، فإن السراج الذي لا يضيء قريبه كيف يضيء بعيده، فمن عدل قواه وصفاته أولاً واجتنب عن الإفراط والتفريط واستقر على جاد الوسط، كان مستعداً لسلوك هذه الطريقة بين أبناء نوعه، وهو خليفة الله في أرضه، وإذا كان مثله حاكماً بين الناس وكان زمام مصالحهم في قبضة اقتداره لتنورت البلاد بأهلها، وصلحت أمور العباد بأسرها، وزاد الحرث والنسل ودامت بركات السماء والأرض.

وغير خفي أن اشرف وجوه العدالات وأهمها وأفضل صنوف السياسات وأعمها هو عدالة السلطان، إذ غيرها من العدالات مرتبطة بها ولولاه لم يتمكن أحد من رعاية العدالة، كيف وتهذيب الأخلاق وتدبير المنزل يتوقف على فراغ البال وانتظام الأحوال، ومع جور السلطان أمواج الفتن متلاطمة، وأفواج المحن متراكمة، وعوائق الزمان متزاحمة، وبوائق الحدثان متصادمة، وطالبو الكمال كالحياري في الصحارى لا يجدون إلى مناله سبيلاً ولا إلى جداوله مرشداً ودليلاً، وعرصات العلم والعمل دارسة الآثار، ومنازلهما مظلمة الأرجاء والأقطار، فلا يوجد ما هو الملاك في تحصيل السعادات، أعني تفرغ الخاطر والاطمئنان وانتظام أمر المعاش الضروري لأفراد الإنسان.

ولذا لو تصفحت في أمثال زماننا زوايا المدن والبلاد واطلعت على بواطن فرق العباد، لم تجد من الألوف واحداً تمكن من إصلاح نفسه ويكون يومه خيراً من أمسه، بل لا تجد ديناً إلا وهو باك على فقد الإسلام وأهله، ولا طلباً إلا وهو لعدم المكنة باق على جهله، ولعمري إن هذا الزمان هو الزمان الذي أخبر عنه سيد الأنام وعترته الأبرار الكرام عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام من أنه: (لا يبقى من الإسلام إلا اسمه، ولا من القرآن إلا رسمه).

وبالجملة: المناط كل المناط في تحصيل الكمالات وإخراج النفوس من الجهالات، هو عدالة السلطان، واعتناؤه بإعلاء الكلمة، وسعيه في ترويج أحكام الدين والملة، ولذا ورد في الآثار: (إن السلطان إذا كان عادلاً كان شريكاً في ثواب كل طاعة تصدر عن كل رعية، وإن كان جائراً كان سهيماً في معاصيهم).

وقال سيد الرسل صلى الله عليه وآله وسلم: (أقرب الناس يوم القيامة إلى الله تعالى الملك العادل وأبعدهم عنه الملك الظالم).

وورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم: (عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة).

والسر أن اثر عدل ساعة واحدة ربما يصل إلى جميع المدن والأمصار ويبقى على مر الدهور والأعصار، وقال بعض

الأكابر: لو علمت أنه يستجيب لي دعوة واحدة لخصصتها بإصلاح حال السلطان حتى يعم نفعه.

لا حاجة إلى العدالة مع رابطة المحبة

لو استحكمت رابطة المحبة وعلاقة المودة بين الناس لم يحتاجوا إلى سلسلة العدالة، فإن أهل الوداد والمحبة في مقام الإيثار ولو كان بهم خصاصة، فكيف يجوز بعضهم على بعض، والسر أن رابطة المحبة أتم وأقوى من رابطة العدالة لأن المحبة وحدة طبيعية جبلية، والعدالة وحدة قهرية قسرية، على أنها لا تنتظم بدون المحبة، لكونها باعثة للإيجاد، كما أشير إليه في الحديث القدسي (كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف)، فالمحبة هو السلطان المطلق،

***الحلقة الرابعة**

أشرف وجوه العدالة عدالة السلطان

والعدالة نائبها وخليفتها.

التكميل الصناعي لاكتساب الفضائل على طبق ترتيب الكمال الطبيعي

لاكتساب الفضائل ترتيب ينبغي أن لا يتعدى عنه، وبيان ذلك، أن مبادئ الحركات المؤدية إلى الكمالات: إما طبيعية كحركة النطفة في الأطوار المختلفة إلى بلوغ كمال الحيوانية، أو صناعية كحركة الخشب بتوسط الآلات إلى بلوغ كمال السريرية، ثم الطبيعية وتحريكاتها لاستنادها إلى المبادئ العالية تكون متقدمة على الصناعية المستندة إلى الإنسان، ولما كان كمال الثواني أن تتشبه بالأوائل، فينبغي أن تقتدي الصناعية في تحريكاتها المؤدية إلى كمالها بالطبيعة.

وإذا ثبت ذلك فاعلم: أن تهذيب الأخلاق لما كان أمراً صناعياً لزم أن يقتدي في تحصيله من حيث الترتيب بأفعال الطبيعة في ترتيب حصولها، فنقول: لا ريب في أن أول ما يحصل في الطفل قوة طلب الغذاء، وإذا زادت تلك القوة يبكي ويرفع صوته لأجل الغذاء، وإذا قويت حواسه وتمكن من حفظ بعض الصور يطلب صورة الأم أو الظئر، وجميع ذلك متعلق بالقوة الشهوية، ونهاية هذه القوة وكمالها أن يتم ما يتعلق بالشخص من الأمور الشهوية، وينبعث منه الميل إلى استبقاء النوع، فيحدث ميل النكاح والوقاع.

ثم تظهر فيه آثار القوة الغضبية حتى يدفع عن نفسه ما يؤذيه ولو بالاستعانة بغيره، وغاية كمال هذه القوة حصول التمكن من حفظ الشخص والاقدام على حفظ النوع، فيحدث فيه الميل إلى ما يحصل به التفوق من أصناف الرئاسات والكرامات، ثم تظهر فيه آثار قوة التمييز وتتزايد إلى أن يتمكن من تعقل الكليات.

وهنا يتم ما يتعلق بالطبيعة من التدبير والتكميل، ويكون ابتداء التكميل الصناعي، فلو لم يحصل الاستكمال بالكسب والصناعة بقي على هذه الحالة ولم يبلغ إلى الكمال الحقيقي الذي خلق الإنسان لأجله، لأنه لم يخلق أحد مجبولاً على الاتصاف بجميع الفضائل الخلقية إلا من أيد من عند الله بالنفس القدسية، وإن كان بعض الناس أكثر استعداداً لتحصيل بعض الكمالات من بعض آخر، فلابد لجل الأنام في تكميل نفوسهم من الكسب والاستعلام.

فظهر مما يذكر: إن الطبيعة تولد أولاً قوة الشهوة، ثم قوة الغضب، ثم قوة التمييز، فيجب أن يقتدي به في التكميل الصناعي، فيهذب أولاً القوة الأولى ليكتسب العفة، ثم الثانية ليتصف بالشجاعة، ثم الثالثة ليتحلى بالحكمة، فمن حصل بعض الفضائل على الترتيب الحكمي كان تحصيل الباقي له في غاية السهولة، ومن حصله لا على الترتيب، فلا يظن أن تحصيل الباقي حينئذ متعذر بل هو ممكن، وإن كان أصعب النسبة إلى تحصيله بالترتيب فإن عدم الترتيب يوجب عسر الحصول لا تعذره، كما أن الترتيب يوجب يسره لا مجرد إمكانه، فلا يترك السعي والجد في كل حال ولا ييأس من رحمة الله الواهب المتعال، وليشمر ذيل الهمة على منطقة الطلب حتى ييسر الله له الوصول إلى ما هو المقصد والمطلب.

ثم الفضيلة إن كانت حاصلة لزم السعي في حفظها وإبقائها، وإن لم تكن حاصلة بل كان ضدها حاصلاً وجب تحصلها بإزالة الضد، ولذا كان فنّ الأخلاق على قسمين: (أحدهما) راجع إلى حفظ الفضائل، (وثانيهما) نافع في دفع الرذائل، فيكون شبيهاً بعلم الطب، من حيث انقسامه إلى قسمين: (أحدهما) في حفظ الصحة، (وثانيهما) في دفع المرض، ولذا يسمى طباً روحانياً، كما أن الطب المتعارف يسمى طباً جسمانيا، ومن هنا كتب جالينوس إلى روح الله عليه السلام: (من طبيب الأبدان إلى طبيب النفوس)، فكما أن لكل من حفظ الصحة ودفع المرض في الطب الجسماني علاجاً خاصاً، فكذلك لكل من حفظ الفضائل وإزالة الرذائل في الطب الروحاني معالجات معينة، كما نذكره إن شاء الله تعالى(1).

---

(1) جامع السعادات للمحقق النراقي: ص٧٥ - ٧٨.

شروط الإمام ومواصفاته بين الشيعة وأهل السنة

الإمام هو من له منصب الخلافة والولاية بعد النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، فمن الطبيعي والحال هذه أن تكون له شروط معينة، نظرا للمكانة المهمة التي سيشغلها والمسؤولية الكبرى التي ستلقى على عاتقه بعد رحيل النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، وقد وقع الاتفاق بين الشيعة والسنة على بعض هذه الشروط والمواصفات التي ينبغي توفرها في الإمام، ووقع الاختلاف بينهما على كثير من الشروط الأخرى التي يجب توفرها فيه، وفيما يلي استعراض لهذه الشروط وتبيان موضع الاتفاق وموضع الاختلاف في هذه المسألة.

الشرط الأول: الإسلام

وهذا شرط مجمع عليه بين جميع الفرق الإسلامية لا يختلف فيه أحد منهم، وقد استدل عليه بآيات وأحاديث كثيرة منها قوله تعالى في (سورة النساء الآية رقم ١٤١): «وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا» فالآية المباركة صريحة في عدم شرعية تسليط الكافر على المؤمن، والإمامة من اظهر مظاهر التسليط فهي مسلوبة عنه بنص الآية المباركة.

ومن الأدلة الدالة على هذا الشرط الآيات الكثيرة الناهية عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المسلمين، مثل قوله تعالى في سورة النساء (الآية رقم ١٤٤): «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنًا مُّبِينًا».

ومثل قوله سبحانه في سورة آل عمران (الآية رقم ٢٨): «لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ» وتنصيب الكافر إماما هو من أظهر مصاديق التولي المنهي عنه في هذه الآية المباركة.

ومن الأدلة الدالة على وجوب شرط الإسلام في الإمام قوله تعالى في سورة النساء (الآية رقم ٥٩): «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ» فعبارة منكم دليل صريح على وجوب أن يكون إمام المسلمين منهم.

وتوجد أدلة أخرى كثيرة تدل على اعتبار شرط الإسلام في الإمام الذي يتصدى لتولية أمور المسلمين أعرضنا عنها خوف الإطالة.

الشرط الثاني: العقل

وهذا الشرط من الشروط البديهية فلا تنعقد الإمامة لذاهب عقل بجنون أو غيره، لان العقل كما قيل آلة التدبير فإذا ذهبت الآلة ذهب التدبير، ولان المجنون أو قليل العقل يحتاج بنفسه إلى من يدبر أموره فكيف يوكل إليه تصريف أمور الملايين من المسلمين.

الشرط الثالث: البلوغ

وقد اختلف المسلمون في هذا الشرط، فمنع أهل السنة أن يتولى الإمامة صبي دون البلوغ، بحجة أن الصبي في الشرع لا يتصرف بحق نفسه دون إذن وليه فكيف يتصرف في أمور المسلمين، قال ابن حزم في كتابه (الفصل في الملل والنحل ج٤ ص١١٠): (وجميع فرق أهل القبلة ليس منهم أحد يجيز إمامة امرأة ولا إمامة صبي لم يبلغ الحلم إلا الرافضة فإنها تجيز إمامة الصغير)، وعليه فجميع فرق أهل السنة كما نص ابن حزم لا تجيز إمامة الصبي دون سن التكليف.

أما الشيعة الإمامية فإنهم يجوزون إمامة الصبي حتى وان لم يبلغ سن التكليف، لان الإمامة عندهم كالنبوة منصب إلهي يمنحه الله سبحانه للإنسان الكامل حتى وان كان صبيا، لان الكمال يمكن أن يتحقق حتى للصبيان، والشواهد عليه من القرآن كثيرة من أوضحها إتيان الله سبحانه النبوة لعيسى ابن مريم وهو صبي في المهد، وإيتاء يحيى الحكم والزعامة والنبوة وهو صبي أيضا، كما قال سبحانه في سورة مريم (الآية رقم ٢٩ - ٣٠): «فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ۝٢٩ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا»، وكما قال سبحانه في سورة مريم (الآية رقم ١٢): «يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا».

وما قيل في ان الصبي لا يؤذن بان يتصرف في حق نفسه إلا بإذن الولي فكيف يتصرف بحقوق المسلمين غير مانع عن الإمامة، لان هذه القاعدة غير شاملة لجميع أفراد الصبيان فمن الصبيان كما رأينا في الآيات السابقة من يستطيع التصرف في أمر نفسه وغيره فيوكل الله له أمر العباد والبلاد، والنبوة شأنها شأن الإمامة فكلاهما منصب الهي يعطى لمن يختاره الله ويجتبيه فإذا جازت أن تعطى لبعض الصبيان فلا مانع حينئذ أن تعطى الإمامة لهم باختيار من الله واصطفاء.

الشرط الرابع: أن يكون حرا

وهذا الشرط مجمع عليه بين جميع الفرق الإسلامية، لا يشذ منهم احد إلا الخوارج، فإنهم جوزوا أن يكون الإمام عبدا مملوكا، وهو شاذ لا يقدح في الإجماع، ووجه اشتراط الحرية يرجع إلى أن العبد مسلوب التصرف ولا يملك لنفسه شيئا إلا بإذن مولاه، ومن لا يكون له ولاية على نفسه كيف يكون له ولاية على جميع أفراد الأمة الإسلامية.

الشرط الخامس: أن يكون ذكرا

فلا تصح الإمامة والخلافة للنساء إجماعا، ولم يشذ عن هذا الإجماع احد من فرق المسلمين، إلا فرقة من فرق الخوارج اسمهم الشبيبية نسبة إلى (شبيب بن يزيد الشيباني)، قال البغدادي في (الفرق بين الفرق ص١١٠): (انه مع أتباعه أجازوا إمامة المرأة منهم إذا قامت بأمورهم وخرجت على مخالفيهم وزعموا أن غزالة أم شبيب كانت الإمام بعد قتل شبيب إلى أن قتلت) وهذا شاذ لا يخدش بالإجماع.

وقد استدلوا على عدم إمامة المرأة بأدلة كثيرة نختار منها ما يلي:

فقد استدلوا على ذلك بعدم جريان العادة في تنصيب المرأة إماما لا في شريعتنا ولا في الشرائع السابقة، ولو كان ذلك جائزا في الشرع لوصل إلينا خبره وأدرج في ضمن الأحكام الشرعية ولما أهملته الكتب السماوية وتعاليم الأنبياء العظام صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ويدل عليه أيضا قول النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم: (لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة)، بالإضافة إلى الأحاديث التي صرحت بان النساء ناقصات العقل والدين، والإمامة تحتاج إلى كمال الرأي وتمام العقل والفطنة.

كما أن الإمامة تستلزم الدخول في المحافل ومخالطة الرجال وقيادة الجيوش ونحو ذلك وهذا كله محظور على النساء شرعا بنص قوله تعالى في سورة الأحزاب (الآية رقم ٣٣): « وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ »(الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف للسيد ابن طاووس: ٢٨٦).

الشرط السادس: العلم

وهو شرط قد أجمعت عليه جميع الفرق الإسلامية، وكيف لا تجمع وقد نبه اليه القران الكريم في مواضع لا حصر لها، كما في قوله تعالى في سورة البقرة (الآية رقم ٢٤٧): « وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » فعدّ القرآن الكريم العلم في هذه الآية المباركة من الأمور التي جعلته أحق بالملك دون غيره.

وقال تعالى وهو يتحدث عن نبي الله سليمان عليه السلام: « وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ » (سورة ص الآية رقم ٢٠) فنوه سبحانه بان العلم والحكمة واحدة من وسائل شد الملك وتقويته وإدامته .

وقال تعالى وهو يتحدث عن نبي الله يوسف عليه السلام: « قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ » (سورة يوسف الآية رقم ٥٥)، وقد فضل الله سبحانه الذين يعلمون على الذين لا يعلمون في آيات كثيرة جدا منها قوله: « قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ » (سورة الزمر الآية رقم ٩).

فشرط العلم كما نرى شرط قرآني وهو شرط مجمع عليه عند جميع فرق المسلمين، ولكنهم اختلفوا في مقدار هذا العلم الذي ينبغي توفره في الإمام، فأما أهل السنة فقد اختلفوا إلى ثلاث فرق:

الفرقة الأولى: اشترطوا أن يكون الإمام قد وصل في علمه إلى مرتبة الاجتهاد، وهم الجمهور الأعظم منهم، وقد نوه إلى ذلك الشاطبي بقوله: (إن العلماء نقلوا الاتفاق على أن الإمامة الكبرى لا تنعقد إلا لمن نال رتبة الاجتهاد والفتوى في علوم الشرع) (راجع الاعتصام للشاطبي ج٢ ص١٢٦).

وقال إمام الحرمين الجويني: (فالشرط أن يكون الإمام مجتهدا بالغا مبلغ المجتهدين مستجمعا صفات المفتين ولم يؤثر في اشتراط ذلك خلاف) (راجع غياث الأمم ص٦٦).

واستدل أصحاب هذا الرأي بعدة أدلة منها:

ألف: ما روي بطرقهم عن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم: (عن أبي مسعود الأنصاري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله فان كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة فان كانوا في السنة سواء فأقدمهم هجرة فان كانوا في الهجرة سواء فأقدمهم سلما) (راجع صحيح مسلم ج ٢ ص١٣٣). فإذا لم يقدم في الصلاة إلا الأقرأ والأعلم بالسنة فان الإمامة أولى بذلك

باء: واستدلوا على ذلك أيضا بالقياس حيث قاسوا منصب الإمامة العظمى على منصب القضاء، قال الباقلاني: (لان القاضي الذي يكون من قِبَله يفتقر إلى ذلك فالإمام أولى).

جيم: لان طبيعة عمله تستدعي أن يكون مجتهدا، يقول القلقشندي: (لأنه ـ أي الإمام ـ محتاج لان يصرف الأمور على النهج القويم ويجريها على الصراط المستقيم ولان يعلم الحدود ويستوفي الحقوق ويفصل الخصومات بين الناس وإذا لم يكن عالما مجتهدا لم يقدر على ذلك) (راجع مآثر الإنافة ج١ ص٣٧).

الفرقة الثانية: لم يشترطوا الاجتهاد في الإمام ولا حتى خبيرا بمواقع الاجتهاد، قال الشهرستاني: (ومالت جماعة من أهل السنة إلى ذلك حتى جوزوا أن يكون الإمام غير مجتهد ولا خبير بمواقع الاجتهاد ولكن يجب أن يكون معه من يكون من أهل الاجتهاد فيراجعه في الأحكام ويستفتيه في الحلال والحرام ويجب أن يكون في الجملة ذا رأي متين وبصر في الحوادث نافذ) (راجع الملل والنحل للشهرستاني ج١ص١٦٠).

وقد عدّ ابن حزم شرط الاجتهاد من الشروط المستحبة لا الواجبة (راجع الفصل في الملل والأهواء والنحل ج٤ ص١٦٦).

والى ذلك ذهب الغزالي أيضا حيث قال: (وليست رتبة الاجتهاد مما لابد منه في الإمامة ضرورة بل الورع الداعي إلى مراجعة أهل العلم كاف) (راجع فضائح الباطنية ص١٩١).

والى ذلك ذهب أيضا أكثر الحنفية (انظر رئاسة الدولة في الفقه الإسلامي ص١٣٤).

الفرقة الثالثة: وهم بعض المعاصرين الذين ذهبوا إلى القول بضرورة أن يكون الإمام على درجة كافية من العلم الشرعي ومن العلوم الأخرى لان طبيعة عمله تستلزم ذلك، ففي بعض الأحيان يتعين عليه إبداء الرأي في ساعة حرجة لا يمكنه فيها مراجعة العلماء واستفتائهم.

ولكن ليس من الضروري في نظرهم أن يبلغ درجة الاجتهاد المطلق لتعذره في كثير من الناس، فإذا وجد مجتهد تتوفر فيه بقية الشروط الضرورية والمنصوص عليها كالاجتهاد المطلق أو النسبي فهو المطلوب وإلا فلا تترك مصالح المسلمين معطلة ويدب الفساد فيهم بسبب عدم وجود المجتهد الذي تتوفر فيه شروط الإمامة، فيقدم حينئذ ما هو متوفر. (انظر الإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة لعبد الله ابن عمر بن سليمان الدميجي ص٢٥١).

أما الشيعة فلهم في مسألة علم الإمام كلام كثير واسع يحتاج إلى مساحة خاصة وهو ما سنقوم بمناقشته في العدد اللاحق إن شاء الله تعالى.

الشيخ محمد بن مكي العاملي الشهيد الأول رضي الله عنه

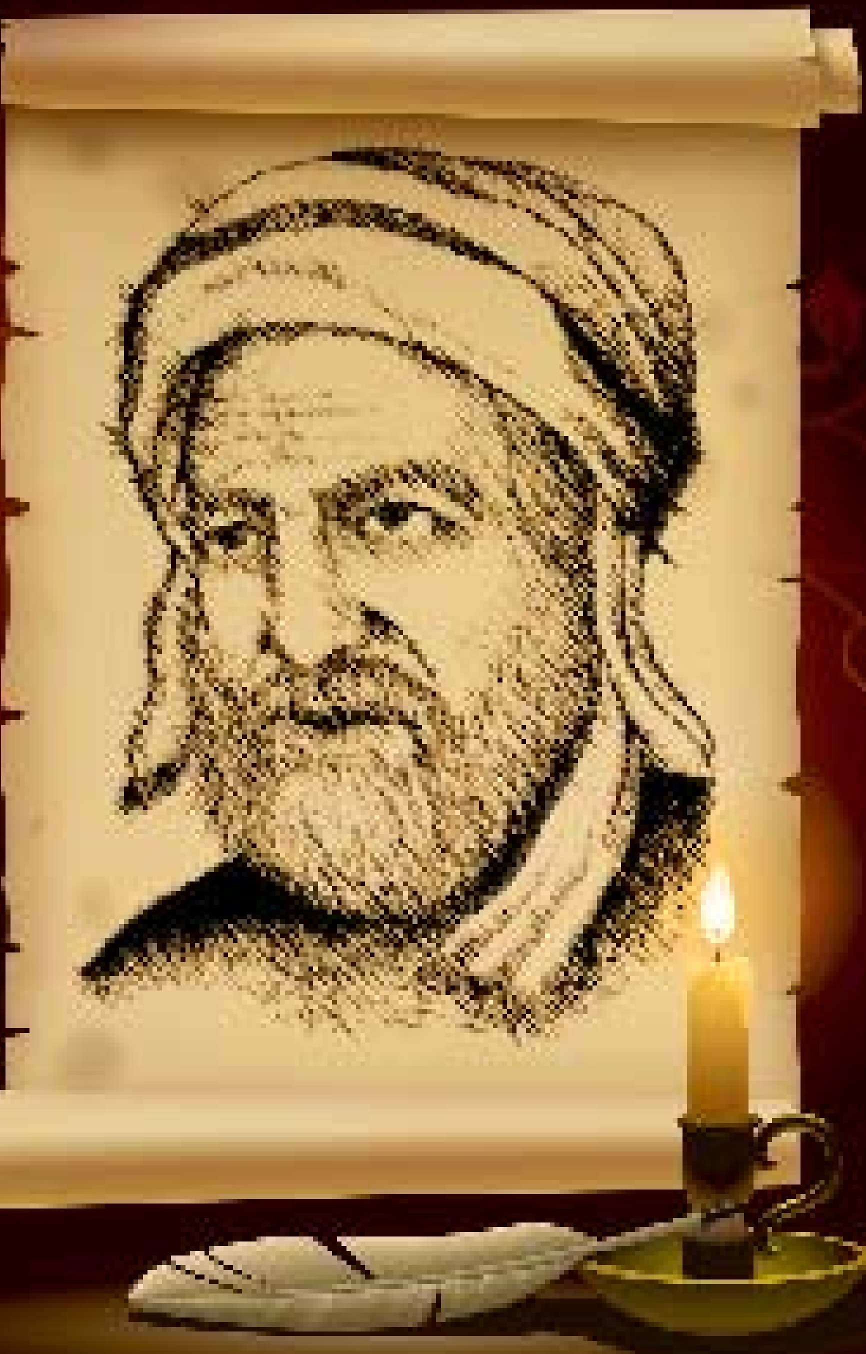

ان حياة هذا الشهيد العظيم متشعبة الأطراف، بعيدة الغور، لا يكفي لدراستها واستعراضها هذا العرض السريع، واللمسات الخفيفة التي لا تمس من حياة الرجال غير ظواهر سطحية من حياتهم. يعرضها التاريخ بتفصيل، أو يلمح إليها بإجمال. فقد جدد الفقيه الأعظم الشهيد الأول مدرسة في الفقه لها أبعادها وحدودها وسماتها الخاصة التي تميزها عن المدارس الفقهية السابقة عليها. وخاض غمار السياسة، واشتبك مع الاتجاهات السياسية المعارضة في وقته، فأيده ناس من المؤمنين، وعارضه آخرون من المخالفين وحاربته فئة، واعترضت سبيله طائفة أخرى، واستدعاه حاكم خراسان واعتقله حاكم دمشق، وقتله في النهاية في حديث مشج. فحياة الشهيد الأول إذاً أعمق من هذه السطحية، والظواهر التي يتناول مترجموه حياته بها، وهي وان كانت اكبر من ان يتم استقصاؤها في هذه الصفحات إلا أن ما لا يدرك كله لا يترك كله كما يقول المثل المعروف لذا سنبين ما يتناسب وما نحن فيه من الاختصار مع مراعاة الأهم فالمهم.

نشأته الفكرية وموطنه

ان للبيئة التي يفتح عليها الإنسان عينيه، وينشأ فيها، ويتلقى فيها مبادئ الثقافة والتفكير أثراً كبيراً في صياغة الشخصية وتكوينها، ومهما كانت قابلية الشخص ومؤهلاته فلا بد أن يتأثر بالبيئة التي ينشأ فيها، وقد فتح فقيهنا المترجم له ناظريه لأول مرة على قرية جزين من بلدة جبل عامل الواقعة في لبنان في بيت من بيوت العلم والدين فقد كان جد الشهيد الأول الشيخ أحمد بن طي الجزيني من علماء هذه المنطقة وأعيانها، وقد تلقى في هذه البلدة مبادئ العلوم العربية والفقه. (لاحظ تاريخ جبل عامل: لمحمد جابر آل صفا ص٢٣٣).

رحلاته في طلب العلم

لم يقتصر الشهيد الأول على الثقافة التي تلقاها في مسقط رأسه جزين وإنما تجاوزها إلى أقطار بعيدة وقريبة أخرى من

مراكز الفكر الإسلامي في ذلك العهد. وأهم هذه الأقطار التي شد إليها الشهيد الأول الرحال لتلقي العلم أو الإفادة هي (الحلة وكربلاء وبغداد ومكة المكرمة والمدينة المنورة والشام والقدس).

وكانت هذه الأقطار في القرن الثامن الهجري من أهم مراكز الثقافة الإسلامية، ولا سيما الحلة، فقد كانت يومذاك، مركزا فكريا كبيرا من مراكز الثقافة الإسلامية الشيعية، ومنطلقا للحركة العقلية في أوساط العالم الإسلامي.

وقد تكررت زيارات الشهيد للحرمين الشريفين، حيث كان طابع الفكر فيها جميعا طابعا سنيا. وأتيح (للشهيد الأول) عن طريق هذه الأسفار أن يندمج في أطر ثقافية مختلفة، ويعيش وجوها مختلفة من الفكر، ويتفاعل مع الاتجاهات الفكرية المتضاربة. فكان على صلة وثيقة بالاتجاهات الفكرية السنية، وعلى معرفة تامة بآرائها وأفكارها، كما كان على صلة وثيقة، ومعرفة تامة بمشيخة الرواية والفقه والكلام عن أعلام السنة، مما يدل على أنه في أسفاره كان يخالط كثيرا من (أقطاب المذاهب الإسلامية) الأخرى، ولم يكن ممن ينطوي فكريا على نفسه.

ويدل على ذلك قوله في إجازته لابن الخازن: وأما مصنفات العامة ومروياتهم فإني أروي عن نحو أربعين شيخا من علمائهم بمكة والمدينة، ودار السلام بغداد، ومصر ودمشق وبيت المقدس، ومقام إبراهيم الخليل. فرويت صحيح البخاري عن جماعة كثيرة بسندهم إلى البخاري. وكذا صحيح مسلم، ومسند أبي داود، وجامع الترمذي، ومسند أحمد، وموطأ مالك، ومسند الدارقطني، ومسند ابن ماجة، والمستدرك على الصحيحين للحاكم ابن عبد الله النيسابوري، إلى غير ذلك.

شيوخه وأساتذته

يستطيع الباحث أن يلمس شخصية الشهيد الأول الفكري من استعراض شيوخ الفكر والعلم الذين اتصل بهم، وأخذ عنهم. وحضر مجالسهم منذ نعومة أظفاره إلى أن انتقل إلى جزين، وأسس فيها مدرسته الشهيرة التي تعتبر الأولى من نوعها في هذه المنطقة. ولم يقتصر اتصال الشهيد بشيوخ الفكر في عصره على شخص خاص أو على قطر خاص، أو على نمط خاص من التفكير. فسوف نجد أن الشهيد الأول اتصل بألوان مختلفة من الفكر وارتاد مختلف مراكز الحركة العقلية في الوطن الإسلامي في وقته واتصل بمختلف العلماء والمفكرين. وعن طريق هذا التفاعل الفكري والتلاقح قدر لشيخنا الشهيد أن يكوّن لنفسه شخصية ثقافية مرموقة.

ففي جزين مسقط رأس الشهيد، درس على والده الشيخ جمال الدين مكي ابن الشيخ محمد شمس الدين وتلقى عنه مبادئ العربية والفقه. وتتلمذ الشهيد كذلك في جزين على الشيخ أسد الدين الصائغ الجزيني أبو زوجته وعم أبيه، وكان هذا عالما كبيرا يتقن ثلاثة عشر علما من العلوم الرياضية (راجع أعيان الشيعة ج ١١ ص ١٢٩).

ثم هاجر الشهيد الأول إلى الحلة وهو بعد لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره، واتصل بالعلامة فخر المحققين ابن العلامة الحلي، وحضر دروسه وأبحاثه، ولمس فخر المحققين في تلميذه الشاب بين مئات الطلاب الذين كانوا يحضرون دروسه نبوغا والمعية لا تتوفر في غيره فأدناه من نفسه وقر به من مجلسه. وصحبه في مجالسه ودروسه، وحفه برعايته وعنايته، وأخذ يثني عليه كلما جرى ذكره في مجلس، أو كلما رأى فرصة مناسبة، وكان يقول: (لقد استفدت من تلميذي محمد بن مكي أكثر مما استفاد مني).

واتصل الشهيد الثاني أيضا بابن معية من علماء الحلة الكبار، ومن أعاظم تلامذة العلامة الحلي.

كلمات العلماء فيه

وبإمكان القارئ أن يلمس مكانة الشهيد العلمية في نفوس الفقهاء من أساتذته وتلاميذه والمتأخرين عنه مما ذكروا في شأنه في الإجازات والتراجم عند التعرض لذكر الشهيد.

فقد قال عنه أستاذه فخر المحققين: (الإمام الأعظم، أفضل علماء العالم، وسيد فضلاء بني آدم مولانا شمس الحق والدين محمد بن مكي بن حامد أدام الله أيامه) (راجع بحار الأنوار كتاب الإجازات ج ١٠٧ ص ١٧).

ويقول عنه الشيخ محمد بن يوسف الكرماني القرشي الشافعي في إجازته للشهيد الأول: (المولى الأعظم الأعلم، إمام الأئمة، صاحب الفضلين مجمع المناقب والكمالات الفاخرة. جامع علوم الدنيا والآخرة).

ويقول الشهيد الثاني فيه: (شيخنا وإمامنا المحقق البدل النحرير المدقق، الجامع بين منقبة العلم والسعادة، ومرتبة العمل والشهادة الإمام السعيد أبي عبد الله الشهيد محمد بن مكي أعلى الله درجته كما شرف خاتمته) (راجع مقدمة الروضة البهية ج ١ ص٥).

وقال عنه المحقق الكركي: (الإمام شيخ الإسلام، فقيه أهل البيت في زمانه، ملك العلماء، علم الفقهاء، قدوة المحققين والمدققين، أفضل المتقدمين والمتأخرين) (بحار الأنوار كتاب الإجازات ج١٠٧ ص٤٢).

وقال شيخنا الحر العاملي في كتابه (أمل الآمل ج٢ ص١٨١): (كان عالما ماهرا، فقيها محدثا، محققا متبحرا، كاملا جامعا لفنون العقليات والنقليات، زاهدا عابدا، شاعرا أديبا منشئا، فريد دهره، عديم النظير في زمانه).

استشهاده وقصة مقتله «رضوان الله تعالى عليه»

قال الحر العاملي في أمل الآمل. وكانت وفاته سنة ٧٨٦، اليوم التاسع من جمادى الأولى، قتل بالسيف، ثم صلب، ثم رجم، ثم أحرق، بدمشق، في دولة بيدر وسلطنة برقوق، بفتوى القاضي برهان الدين المالكي وعباد بن جماعة الشافعي، بعدما حبس سنة كاملة في قلعة الشام.. وكان سبب حبسه وقتله أنه وشى به رجل من أعدائه وكتب محضرا يشتمل على مقالات شنيعة عند العامة من مقالات الشيعة وغيرهم، وشهد بذلك جماعة كثيرة وكتبوا عليه شهاداتهم، وثبت ذلك عند قاضي صيدا، ثم أتوا به إلى قاضي الشام، فحبس سنة. ثم أفتى الشافعي بتوبته والمالكي بقتله، فتوقف عن التوبة خوفا من أن يثبت عليه الذنب، وأنكر ما نسبوه إليه للتقية، فقالوا: قد ثبت ذلك عليك وحكم القاضي لا ينقض والإنكار لا يفيد، فغلب رأي المالكي لكثرة المتعصبين عليه، فقتل، ثم صلب ورجم، ثم أحرق قدس الله روحه.

خبر بئر ذات العلم
وشجاعة أمير المؤمنين عليه السلام

ابن شهر آشوب: عن محمد بن هارون بإسناده إلى ابن عباس في خبر طويل أنه أصاب الناس عطش شديد في الحديبيّة، فقال النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: هل من رجل ـ يمضي في السقاة إلى بئر ذات العلم فيأتينا بالماء وأضمن له على الله الجنة؟)، فذهب جماعة فيهم سلمة بن الأكوع، فلما دنوا من الشجر والبئر سمعوا حسّاً وحركة شديدة وقرع طبول، ورأوا نيراناً تتّقد بغير حطب فرجعوا خائفين.

ثم قال: (هل من رجلٍ يمضي مع السقاة فيأتينا بالماء وأضمن له على الله الجنة؟)، فمضى رجل من بني سليم وهو يرتجز، فلما وصلوا إلى الحسّ رجعوا وجلين، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (هل من رجل يمضي مع السقاة إلى البئر ذات العلم فيأتّينا بالماء، اضمن له على الله الجنة؟). فلم يقم أحد، واشتدّ بالناس العطش وهم صيام، ثمّ قال لعلي ـ عليه السلام ـ: (سر مع هؤلاء السقاة حتى ترد بئر ذات العلم وتستقي وتعود إن شاء الله).

فخرج علي قائلا:

أعوذ بالرحمن أن أميلا
من عزف جنّ أظهروا تأويلا
وأوقدت نيرانها تعويلا
وقرّعت مع عزفها الطبولا

قال: فتداخلنا الرعب، فالتفت علي ـ عليه السلام ـ إلينا وقال: (اتّبعوا أثري، ولا يفزعنّكم ما ترون وتسمعون، فليس بضائركم إن شاء الله)، ثم مضى، فلما دخلنا الشجر فإذا بنيران بغير حطب، وأصوات هائلة، ورؤوس مقطّعة، لها ضجّة وهو يقول: (اتّبعوني ولا خوف عليكم، ولا يلتفت أحد منكم يميناً ولا شمالاً).

فلمّا جاوزنا الشجرة ووردنا الماء فأدلى البراء بن عازب دلوه في البئر، فاستقى دلواً أو دلوين، ثمّ انقطع الدلو فوقع في القليب، والقليب ضيّق مظلم، بعيد القعر، فسمعنا في أسفل القليب قهقهة وضحكاً شديداً.

فقال علي ـ عليه السلام ـ: (من يرجع إلى عسكرنا فيأتينا بدلو ورشا؟) فقال أصحابه: من يستطيع ذلك؟ فائتزر بمئزر ونزل في القليب، وما تزداد القهقهة إلاّ علوّاً، وجعل ينحدر في مراقي القليب إذ زلّت رجله فسقط فيه، ثمّ سمعنا وجبة شديدة واضطراباً وغطيطاً كغطيط المخنوق، ثم نادى (عليّ): (الله أكبر، الله أكبر، أنا عبد الله، وأخو رسول الله، هلمّوا قربكم، فأفعمها وأصعدها على عنقه شيئاً فشيئاً ومضى بين أيدينا فلم نر شيئاً، فسمعنا صوتاً:

أيّ فتى ليلٍ أخي روعات
وأيّ سبّاق إلى الغايات
لله در الغرر السادات
من هاشم الهامات والقامات
مثل رسول الله ذي الآيات
أو كعليّ كاشف الكربات
كذا يكون المرء في الحاجات

فارتجز أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ:

الليل هول يرهب المهيبا
ومذهل المشجّع اللّبيبا
فإنّني أهول منه ذيبا
ولست أخشى الروع والخطوبا
إذا هززت الصارم القضيبا
أبصرت منه عجباً عجيباً

وانتهى إلى النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وله زجل، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: (ماذا رأيت في طريقك يا علي؟)، فأخبره بخبره كلّه، فقال: إنّ الذي رأيته مثل ضربه الله لي ولمن حضر معي في وجهي هذا، قال علي ـ عليه السلام ـ: أشرحه لي يا رسول الله.

فقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: (أمّا الرؤوس التي رأيتم لها ضجّة ولألسنتها لجلجة فذلك مثل قومي معي يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، ولا يقبل الله منهم صرفاً ولا عدلاً، ولا يقيم لهم يوم القيامة وزناً.

وأمّا النيران بغير حطب ففتنة تكون في أمّتي بعدي، القائم فيها والقاعد سواء، لا يقبل الله لهم عملاً، ولا يقيم لهم يوم القيامة وزناً، وأمّا الهاتف الذي هتف بك (فذاك) سلقنة وهو سملقة بن غمداف الذي قتل عدوّ الله مسعراً شيطان الأصنام الذي كان يكلّم قريشاً منها، ويشرع في هجائي).

(وعن) عبد الله بن سالم أنّ النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بعث سعد بن مالك بالرواية يوم الحديبيّة، فرجع رعباً من القوم، (ثمّ بعث آخر فنكص فزعاً)، ثمّ بعث عليّاً ـ عليه السلام ـ فاستسقى، ثمّ أقبل بها إلى النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فكبّر، ودعا له بخير[1].

(١) مدينة المعاجز للسيد هاشم البحراني: ج٢، ص٨٢ ـ ٨٥.

مقارعة الفقر بعفة النفس

إنّ عفّة النفس كرامة إنسانية وشرف نبيل كان قد تحلّى بها العالم التقي آية الله الشيخ ملّا عباس سيبويه اليزدي رحمه الله، فمنذ بداية شبابه الذي وظّفه لطلب العلوم الدينية في حوزة كربلاء المقدسة خلال سنوات (١٢٨٠ ـ ١٣٢٩هـ) استقام في روحيته العالية حتى أصبح علماً من أعلام الفقهاء الأتقياء.

فإذا كان بعض الناس يرخص ماء وجهه فيريقه لحاجة مادية عند هذا وذاك، ومن دون اعتبارات أخلاقية، ولا ثمن للكرامة، فإن هذا الرجل العظيم أبتّ نفسه الكريمة أن تفعل ذلك، إذ كان ـ وهو طالب يدرس ـ يجوب الأزقة والدروب في ظلام الليل ليجمع قشور البطيخ والرقي، ليسدّ بها جوعه حتى يواصل بذلك إشباع جوعه المعنوي للعلم وللمعالي، والعجيب أنه استطاع أن يخفي تعفّفه واستغناءه عن الناس طوال حياته، فلم يعرف عن حاله أحد إلاّ ابنه (آية الله الشيخ محمد علي) الذي أحاط بأحوال أبيه فيما بعد، حيث أخذ يعلّمه دروس الحياة الكريمة وينقل إليه تجاربه الغنيّة بروح الشرف والاستقامة، وهو ـ أي الابن ـ نقل لولده سماحة آية الله الشيخ محمد حسين سيبويه رحمه الله ـ الذي كتب لي هذه الخواطر ـ يقول له: إن والدي آية الله الشيخ ملاّ عباس رحمه الله حكى لي قصة فقره وزواجه قائلاً: لما عرض عليّ العالم الفاضل الشيخ ملاّ رضا اليزدي رحمه الله أن أتقدم للزواج من كريمته، اعتذرت منه لأني كنت صفر اليدين.

فقال: لا أطلب منك مالاً.

لذلك تزوجت ولم يكن لديّ مال ولا أثاث ولا ما يحتاج الإنسان المتزوّج في بيته من أبسط اللوازم المنزلية.

ولم أستطع حبس دموعي التي انهمرت على حالي عندما وجدت (مهر زواجي) أقلّ من (مهر السنّة) وهو مهر زواج السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام والذي عبارة عن ٥٠٠ مثقال فضّة كما في أكثر الروايات.

فتمّ زفافنا تلك الليلة والبيت خالٍ من كلّ شيء سوى لحاف متواضع نلتحف به وشيء بسيط كنا ننام عليه.

هكذا كان علماؤنا الأفاضل الذين استقاموا على مدارج الكمال المعنوي فصاروا قدوة في العفاف والكرامة والصبر والاستقامة، فهل نحن من المقتدين بهم؟

يقول الإمام علي عليه السلام لكميل ابن زياد: (يا كميل مات خزّان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة).

وقد تخرّج من هذه العائلة الكريمة علماء وخطباء وفقهاء، فابنه الأول هو آية الله الشيخ علي أكبر سيبويه، والثاني هو آية الله الشيخ محمد علي سيبويه، وللأول ولدان عالمان هما الشيخ ميرزا أحمد، وهو يعيش حاليا في طهران، والشيخ ميرزا علي، ويعيش حاليا في مدينة (يزد) الإيرانية.

وأما آية الله الشيخ محمد علي فله أيضا ولدان كأخيه، الأول هو المرحوم آية الله الشيخ محمد حسن، الذي انتقل إلى جوار الله تعالى في مدينة مشهد المقدسة في (٢٢/صفر/سنة ١٤٠١هـ)، والثاني هو سماحة آية الله الشيخ محمد حسين سيبويه (الذي تفضّل علينا بهذه المعلومات) وهو يعيش حاليا في مدينة مشهد المقدسة بجوار مرقد الإمام الرضا عليه السلام، ويعدّ من أكابر علمائها وأساتذة بحث الخارج للفقه في حوزتها العلمية، ومن أحفاد المرحوم علماء وخطباء، وقد أنعم الله عليهم بالعلم النافع ووفقهم للعمل الصالح، ذلك من فضل الله وصبر جدّهم آية الله الشيخ ملاّ عباس سيبويه رحمه الله[1].

---

(١) قصص وخواطر للشيخ المهتدي البحراني: ص١٢٩ ـ ١٣٠.

الطفل العسر

كل أسـرة تتمنـى أن يكون طفلها متصفاً بالقدرة السريعة على التكيف وبالإيجابية في مجـال تعامله مع المواقـف الجديدة، بمعنى أن الأسـرة تحب أن تكون طفلها طفلاً يسراً لا يعاني من أية مشـكلة سـلوكية، ولكن من الملاحـظ أن هنالـك مجموعة مـن الأطفال يتصفون بعكس ذلك، ويمكن أن نطلق عليهم صفة الأطفال العسـرين فما هي خصائص هؤلاء الأطفال؟!.

صفات الطفل العسر

قـد يصـرخ الطفـل باسـتمرارٍ، ويبكي ويشـكو من أشـياء بسـيطة جـداً، ويحدث ضجيجـاً يزعـج الآخرين، وعندمـا يقترب موعـد الاسـتحمام، يبدأ بالبـكاء والصراخ والرفض رافضاً الاسـتحمام وبعد أن ينتهي من الاسـتحمام يعـود للبكاء، لأنـه يريد أن يلعـب بالمـاء، وإذا ذهـب بنزهـة للحديقة يرفـض العـودة ولا يعـرف حـدوداً لذلـك.. فيغضـب ويصرخ... إن طفلاً كهذا يعد طفلاً عسـراً، فهو يبكي أكثر مما يضحك، ويشكو باسـتمرار، وتبدو عليـه علائم عدم الرضى أكثـر مما تبـدو عليه السـعادة، لأنـه يتميز بالقـدرة البطيئة على التكيف، فقد يعارض كل شـيء في البداية معارضة شديدة، ولكن مـا إن تمـر فـترة ليسـت بالقصيـرة حتـى يسـتجيب للأمر بشكل إيجابي لا بل يطالبٍ بالمزيـد منـه... إن طفـلاً كهـذا يعـد طفـلاً بطيئـاً في التكيف، يسـتخدم هذا السـلوك في معظـم المواقـف الجديـدة، وإذا لم يكره هؤلاء الأطفال على التكيف الإيجابي، فإنهم يتكيفـون بمـرور الوقـت إذا توافـرت لديهم الفرصـة لاختبـار هذه المواقف. فالشـخص الغريـب يغـدو مألوفـاً لديهم بعـد فترة من الزمن شـاؤوا أم أبوا، فإذا لم يواجه الطفل العسـر المواقـف الجديـدة بشـكل مسـتمر ومنتظم، فإنه ينزع إلى الانسـحاب من هذه المواقف بطريقة غير سلوكية.

ومـن الجديـر بالذكر أن الطفل العسـر يعاني من عدم انتظام الوظائف البيولوجية، ويتضح ذلك بشـكل خاص من خلال الأشهر والسـنوات الأولى من حيـاة الطفل، فيكون نومـه علـى سـبيل المثال غير منتظـم، وينام سـاعات أقـل ممـا يجـب أن ينـام الطفـل العـادي الطبيعـي في نفـس عمـره، وقـد يسـتيقظ الطفل العسر مرتين وثلاث مرات في الليلـة الواحدة، بفواصـل زمنية لا يمكن التنبـؤ بهـا، ودون مبرر، وقـد ينام في بعض الأحيان لفترات طويلة، وفي السنتين الثانية من العمر والثالثة يسـتيقظ الطفل في الليل ويرفـض أن ينـام، وتعد صفة عـدم انتظام الشـعور بالجوع صفة من صفاته أيضاً فقد يتنـاول وجبة طعام أقل مما يجب أن يتناوله طفـل في سـنة، وأحيانـاً اخـرى قـد يجـوع خلال نصف سـاعة مـن تناوله لآخر وجبة، وعـدم الانتظام هذا يكون في عدد الوجبات وانتظامهـا وكميتهـا، والفـترات الفاصلـة بينها، وتبعـاً لذلك لا تنتظم عملية الإخراج لديـه من حيث التوقيت وعدد المرات وحجم حركة الأمعاء، وتبعاً لذلك يصبح من الصعب تدريب الطفل على تنظيم عملية الإخراج.

يؤكـد الباحثـون أن الطفـل العسـر هـو نتيجة لرعاية ضعيفة وغير منظمة، ونتيجة لخبرة ضعيفة في الأمومة، ومما يزيد الأمر خطـورة أن الطفل العسـر يتحـول فيما بعد لطفل خجول وخائف مع استمرار نموه.

مقترحات للتعامل مع الطفل العسر

ويتجلـى دور الأسـرة هنـا في التعامـل مـع طفلهـا بتسـامح وشـيء مـن الثبات في تربيته، والاحتفاظ بالهدوء لمسـاعدة الطفل على التكيف السـليم، والابتعاد عن الغضب والعصبيـة الزائـدة، مـع الاتفـاق بـين الأم والأب علـى توحيـد أسـلوب التربيـة، لأن تعـدد أسـاليب التربية وتناقضهـا يزيد من حدة المشـكلة، ولابد أن نثابر في التعامل مع الطفـل بصبـر وهـدوء لنخفف من عسـره، وسـنلاحظ أنـه في كل مـرة سـيكون أيسـر ممـا قبلها، وبمعنـى آخر إن الطفل العسـر يحتـاج إلى بيئـة سـوية تمامـاً، لتجعل منه راشـداً سـوياً، فالبيئـة السـوية والمتماسـكة بشـكل قوي يمكنها أن تنمي إمكانات الطفل الوراثية والمحدودة.

الخلافات بين الإخوة ليست حالة مؤقتة

كم مرة في اليوم نجد أنفسـنا مضطرين أن نتقمـص دور القاضي بين أطفالنا حيال الخلافات التي تقع بينهم بين الحين والآخر؟ فالاستفزازات والشجار والمناقشات الحادة بـين الأطفـال لا تنتهـي أبداً، فهـذا يضرب أخـاه، والثاني يعض أخته، ويحتدم الصدام ليصبح اشـتباكاً بالأيـدي... ويصرخ أحدهم مسـتنجداً بأمه، وتحـاول الأم أن تجد حلاً لهـذا الشـجار الدائم بين أطفالهـا، وقد لا تجـد الحل في معظـم الأوقات، فكـم تعاني الأمهـات مـن هذه المشـكلة وترهـق عصبياً ونفسياً جراء ذلك، وقد تصل ظنون بعضهن إلى الحـد الـذي تتخيـل فيـه أن أطفالهـا يكرهون بعضهم بعضاً.

ليست هذه الحالة مؤقتة تنتهي خلال يوم أو يومـين، إنه حال الأطفال في المنزل طوال الوقت، وحال الأطفال في كل منزل والمشكلة ليست سهلة لأنٍ استمرار العراك بين الإخوة يحدث ضجيجاً لا يمكن أن تتحمله أعصاب الإنسـان، ولكـن أرجو ألا يفهـم من حديثي أنـه ليـس هناك من حل للمشـكلة، إنما من الممكـن أن ينقلـب العـراك والخصـام إلى حالـة من الود والحـب والصداقة والحنان، ففـي أحد المنازل «على سـبيل المثال» يوجد ثلاثـة أطفال تتراوح أعمارهـم بين الثلاث والثمانـي سـنوات، سـافر والداهـم لقضاء إجـازة لمدة ثلاثة أسـابيع، وقد تركا عندهم مربيـة قديـرة، وأوصيا الجـدة بزيارتهم كل يوم، ولم تكن الأم تشـعر بالراحة خلال هذه الإجازة لأنها كانت تخشـى على أطفالها من نتائج الشجار فيما بينهم، وكذلك شعور الأب وبعد اتصـالات هاتفية أجراها الوالدان مع المنـزل تبين أن الأطفال لم يتشـاجروا أبداً.. وكل شيء كان هادئاً، وكانوا معجبين بالمربية ويحترمونهـا، ويتعاملون معها في أدب وذوق ورقـة، وبهـذا تكـون المربية قد اسـتطاعت بأسـلوب مـا أن تصـل إلى تعليـم الأطفـال كيـف يمكن أن يتعايش الإخوة تحت سـقف واحـد دون إزعاج أهلهم أو إزعاج أنفسـهم. إن الأسـلوب الذي اتبعته المربية مع الأطفال ينبـع مـن رغبتها الجـادة في أن يكون المنزل هادئاً، وفرضت ذلك عليهم بمنتهى الجدية لدرجة شـعر الأطفال من خلالها بأنها قوية وقادرة على معاقبتهم إن لم ينته الشجار.

لقـد كان وراء نجاحهـا في وضـع حـد لخلافاتهم الأسلوب الذي اتبعته المربية، فهو مختلف تماماً عن أساليب بعض الأمهات في حل الشـجار الواقع بـين أطفالهن.. وخاصة الأمهـات اللواتي لا يثقن بأنفسـهن، إضافة إلى وجـود بعـض الأمهات اللواتي يشـعرن بالرضـى عـن هـذه المعارك، وهو نـوع من

الرضى الشاذ اللاشعوري فتتفاخر الواحدة منهن في حديثها مع الصديقات بهذا الشجار الدائم فنراها مبتسمة عندما يقع الشجار بين أطفالها أو مهملة له، وذلك لأنها تتذكر في هذه اللحظة الضجيج والمعارك التي كانت تقوم بينها وبين أخواتها، فتعدّ ذلك أمراً طبيعياً لا بد منه. ولكن هناك سؤال يخطر في أذهاننا ونحن نتحدث عن مشكلة المعارك بين الإخوة وخلافاتهم يدور هذا السؤال عن الأسباب التي تجعل الإخوة يختلفون فيما بينهم، وفيما يلي سنحاول الوقوف عند هذه الأسباب:

أسباب الخلافات بين الإخوة

١. الحالة النفسية للأهل:

إن الحالة النفسية للأب أو الأم تنعكس بشكل أو بآخر على سلوك الأطفال، فعندما يكون الأب موفقاً في عمله أو حياته العاملة وليس هنالك أي نوع من أنواع القلق، فإن درجة المعارك بين الأطفال تنخفض بصورة كبيرة بينما عندما يكون الهم والغم والحزن مسيطراً على نفسية الأب أو الأم، فإن نسبة المعارك بين الأطفال تتزايد، لأن مشكلة الأب ستنعكس على طريقة معاملتهم لأطفالهم، فلن يكونوا هادئين في التعامل معهم، وقد يستخدمون القسوة مع أحد الأطفال، وهنا لا بد أن يجد هذا الطفل الذي يعاني من قسوة أبويه أحياناً كائناً آخر ينتقم منه فيبدأ بافتعال المعارك مع إخوته، إنها الطبيعة الإنسانية، ونحن إذا تعرضنا للاضطهاد من جانب أحد من الناس فإننا نحاول البحث عن إنسان آخر لكي نضطهده.

٢. الغيرة بين الأطفال:

تعد الغيرة بين الأطفال عاملاً قوياً وأساسياً في قيام المعارك بين الإخوة. فالطفل يؤمن إيماناً قوياً وعميقاً بأن حب أبيه وأمه له يجب ألا يتزعزع، ويجب ألا يشاركه فيه أحد ويخاف أن يسرق أحد إخوته جزءاً من حب الأب أو الأم، والخوف يولد الشك بين الإخوة، ويولد الغيظ عندهم، وهذه المشاعر تختلف من طفل إلى آخر اختلافاً شاسعاً، فالطفل الذي عاش فترة طويلة كابن وحيد للأسرة يعدّ أن والده ووالدته ملكاً له وحده، وهذا الطفل الذي لم يتعد عمره ثلاثة أعوام قد يشعر بالغضب والغيظ عندما يولد طفل آخر يشاركه في حب أمه وأبيه وملكيتهما.

٣. تقارب الأعمار بين الأطفال

كلما تقاربت أعمار الأطفال في الأسرة الواحدة كان الجو مهيأ للمعارك أكثر، لأن الطفل الأصغر يشارك الأكبر في الحب، وقد ينافس الطفل الأوسط على مركز اهتمام الأسرة به، وهذا المركز هو هدف كل طفل في العائلة، والطفل الأكبر سيبحث عن منافسه الحقيقي في حب والديه وهكذا تقوم المعارك.

٤. مساواة الأهل في التعامل مع الأطفال: نحن الكبار نسعى إلى المساواة بين الأطفال الإخوة، وهذه المساواة قد تكون مزعجة للطفل لأنها تجعله كائناً مستقلاً في نظر نفسه، إن هناك من يقف نداً له في اهتمام الوالدين، فالطفل البشوش يكون أقل غيرة من إخوته بينما الطفل الذي يرغب في تأكيد ذاته وإثبات وجوده هو كثير المعارك كثير الضجيج يشعر بأن هنالك منافساً له.

أما الطفل البطيء الفهم أو التفكير فإنه سيسبب المتاعب في أسرة تتسم بالذكاء، وكذلك الفتاة التي تكون أقل جمالاً من أخوتها، والطفل القصير القامة بين أشقائه الطوال جداً، والفتاة التي يحب والدها أخاها أكثر منها، كل هذه الحالات تؤدي إلى حدوث مشاجرات بين الإخوة وخاصة عندما يكون جو الأسرة نفسه مساعداً على اشتداد المشاكل بين الأطفال.

مقترحات لمعالجة الخلافات بين الإخوة

«لا يوجد حب متساو في هذه الحياة»

رغم أن كل أم تحاول أن تحب أطفالها بالتساوي ولكن، ولا عجب في ذلك، قد تظلم نفسها في هذه المحاولة، وكذلك الحال بالنسبة للأب.

فلكل طفل من أطفال الأسرة الواحدة صفات خاصة به تجعل والديه يحبانه، وهي صفات تختلف عن أخيه، كما أنه لا يمكن أن نضبط حجم ابتسمناها ونحن نعامل كل طفل من أطفالنا لنجعل كل ابتسامة مساوية للأخرى التي ابتسمتها للأخ الآخر، وبالمقابل لا يمكن أن نكرر الكلمات الغاضبة نفسها عندما يسلك أحد أطفالنا سلوكاً يستحق عليه اللوم، وأن نحاول أن نقول الكلمات ذاتها لأخيه الآخر، إن هذا سيجعل الحياة وكأنها تمثيلية سخيفة، ولا يمكن أن ينخدع الأطفال بهذه المظاهر. وعندما يبدأ الطفل الوصول إلى سن النضج يكره تماماً أن يساويه أحد بآخر، ويكره أن يقارن أحد بينه وبين أخوته سواء أكانت هذه المقارنة لصالح الطفل أم ضده.

وأخيراً: إن الأمر يتطلب منا حزماً وإصراراً وقدرة على إدارة شؤون أطفالنا، مع ثقة بالنفس، حاولوا أن تشغلوا أطفالكم بهوايات محببة لديهم، فهذا يخفف من حدة وعدد الخلافات اليومية بينهم. وانطلقوا بهم خارج المنزل ولو مرة في الأسبوع، فالبقاء في المنزل لفترات طويلة يؤدي إلى الملل وحدوث المعارك بين الإخوة.[١]

---

(١) تربية الطفل، د. سلوى مرتضى: ص٧٥ - ٨١.

ما هذا الاكتشاف؟ إن كوننا لا يتمدد فقط، بل إن سرعة تمدده في ازدياد مستمر، وليست في انتقاص مستمر كما افترض.

من المكتشف؟ ساول بيرلمتير (Saul Perlmutter).

الكون المتسارع

سنة الاكتشاف ١٩٩٨م

احتدم جدال كبير بعد اكتشاف إيدوين هابل بأن الكون في حالة تمدد: هل إن هذا التمدد في حالة تباطؤ بحيث يتوقف في الأخير ويبدأ الكون بالانكماش؟ اكتشف ساول بيرلمتير بأن تمدد الكون يتسارع بحقيقته، محطماً بذلك جميع ما تواجد من نماذج علمية لحركة الكون، الكون يتمدد أسرع الآن مما كان عليه في أي وقت مضى، إنه يمزق نفسه أمام عجز الجاذبية عن إبطاء هذا التمدد على خلاف المتوقع.

خلق هذا الاكتشاف تغييراً جسيماً في الكيفية التي ينظر بها العلماء إلى الكون، ماضيه، ومستقبله، لقد أثّرت في حسابات الانفجار الكبير بل وحتى في نظرة العلماء إلى ماهية تركيب الكون، وصفت (مجلة العلم) هذا الاكتشاف عام ١٩٩٨م، بـ(الانجاز العلمي الأكبر العام).

كيف جاء هذا الاكتشاف؟

اكتشف إيدوين هابل أن الكون يتمدد عام ١٩٢٩م، بنى العلماء من جانبهم نماذج جديدة تفترض أن التمدد في حالة تباطؤ بفعل قوة سحب الجاذبية على النجوم والمجرات وبالتالي تقريبها عن بعضها البعض.

بدا هذا النموذج منطقياً، ولكن بقيت بعض المشاكل العالية التقنية موجودة في الرياضيات المرافقة لهذا النموذج، حاول آينشتاين أن يفسر هذه المسائل باستحداث شيء ما أطلق عليه (الثابت الكوني) - قوة تعاكس الجاذبية، لكنه رفض هذه الفكرة بعد ذلك عاداً إياها الخطأ العلمي الأفدح له.

بعد حصوله على شهادة الـ(Ph.D) في الفيزياء عام ١٩٨٦م، عمل ساول بيرلمتير بمختبر لورينس بيركلي الوطني وترأس مشروع السوبرنوفا الكوني، حيث عملوا على استعمال تلسكوب هابل الفضائي للعثور على السوبرنوفا البعيدة (النجوم المنفجرة) ودراستها، كان اختيارهم للسوبرنوفا مبنيا على كونها الأجسام الأكثر بريقا في الفضاء، فالسوبرنوفا نوع (Ia) تنتج كمية ثابتة من الضوء، ومن المعتقد بأن جميع السوبرنوفا من هذا النوع تومض بنفس البريق تقريبا، هذا ما جعلها نموذجية لدراسة بيرلمتير.

على مر عشر سنوات من عام ١٩٨٧ إلى ١٩٩٧م، طوّر بيرلمتير تقنية للتعرف على السوبرنوفا بالمجرات البعيدة ولتحليل الضوء الناجم عنها، بحث فريقه عشرات الألوف من المجرات ليعثروا على بضع من السوبرنوفا نوع (Ia).

عندما وجد بيرلمتير سوبرنوفا من نوع (Ia)، فإنه قام بقياس شدة لمعانها ليحدد بعدها عن الأرض (كلما كانت أشد لمعاناً، كلما كانت أقرب إلينا)، كما قاس أيضاً الانزياح الأحمر لضوء السوبرنوفا – وهي تقنية تعتمد على مبدأ انزياحات دوبلر، إذا كان نجم ما يتحرك باتجاه الأرض، فإن الضوء

الصادر عنه سينضغط وينحرف لونه قليلاً نحو الأزرق، ولو كان النجم يتحرك بعيداً، فإن الضوء الصادر عنه سيتمدد وينحرف لونه نحو الأحمر، يزداد هذا الانزياح اللوني بازدياد سرعة النجم، من خلال قياس الانزياح الأحمر للسوبرنوفا، تمكن بيرلمتير من حساب سرعة النجم بعيداً عن الأرض.

حان الآن دور الجزء الصعب من المسألة، يمكن لعوامل أخرى أن تسبب انزياحاً أحمر، وكان على بيرلمتير أن يثبت بأن ما قاسه من انزياحات حمراء كانت نتيجة لحركة النجم وحدها بعيداً عن الأرض، وإلا فإنه يمكن للغبار الكوني أن يمتص بعض الضوء ويحرف بلونه، كما أن لبعض المجرات مسحة لونية إجمالاً بحيث يمكنها أن تشوه لون الضوء الصادر عن السوبرنوفا، كان على بيرلمتير وفريقه أن يستطلعوا ويفحصوا ويستثنوا بضعة مصادر محتملة للخطأ.

وأخيراً، بأوائل عام ١٩٩٨م، كان بيرلمتير قد جمع بيانات موثوقة عن البعد والسرعة لعدد من السوبرنوفا (Ia) المنتشرة عبر السماء، كانت جميعها تتحرك بسرع فائقة بعيداً عن الأرض.

استخدم بيرلمتير نماذج رياضية ليبين بأن من غير الممكن لهذه المجرات أن تكون متنقلة بهذه السرعات الحالية منذ الانفجار الكبير، وإلا لكانت أبعد بكثير مما هي عليه الآن.

الطريقة الوحيدة التي يمكن أن تصادق على صحة بيانات بيرلمتير كانت باعتبار أن هذه المجرات متحركة الآن بأسرع من الماضي، كانت هذه المجرات تتسارع في حركتها، ولا تتباطأ، فحري بالكون، إذن، أن يكون متمدداً بسرعة متزايدة

أظهر اكتشاف بيرلمتير أنه لابد من وجود قوة ما جديدة غير معروفة (سميت بـ(الطاقة المعتمة أو السوداء)) من قبل مايكل تيرنر عام ٢٠٠٠م) تدفع بالمادة خارجا (النجوم، المجرات... الخ)، أظهر بحث مؤخرا بأن الكون مملوء بهذه (الطاقة المعتمة) وذلك باستعمال أقمار صناعية جديدة ومصممة لهذا الغرض (تقول بعض التقديرات بأن ثلثي مجموع الطاقة في الكون هي طاقة سوداء)، على مر السنوات القليلة القادمة، سيعيد هذا الاكتشاف كتابة نظريات الإنسان حول أصل وتركيب الفضاء.

حقائق طريفة: هنالك تلسكوب جديد بكلفة ٢٠ مليون دولار أمريكي في القطب الجنوبي تم إنشاؤه عام ٢٠٠٧م، لغرض دراسة وتفسير سبب تسارع الكون، طالما أن هذا الاكتشاف يخرق جميع ما هو متواجد من نظريات حول ولادة وتمدد الكون[1].

---

(١) قصة أعظم ١٠٠ اكتشاف علمي، كيندال هيفن: ص٣١٦ – ٣١٨.

صدر حديثاً
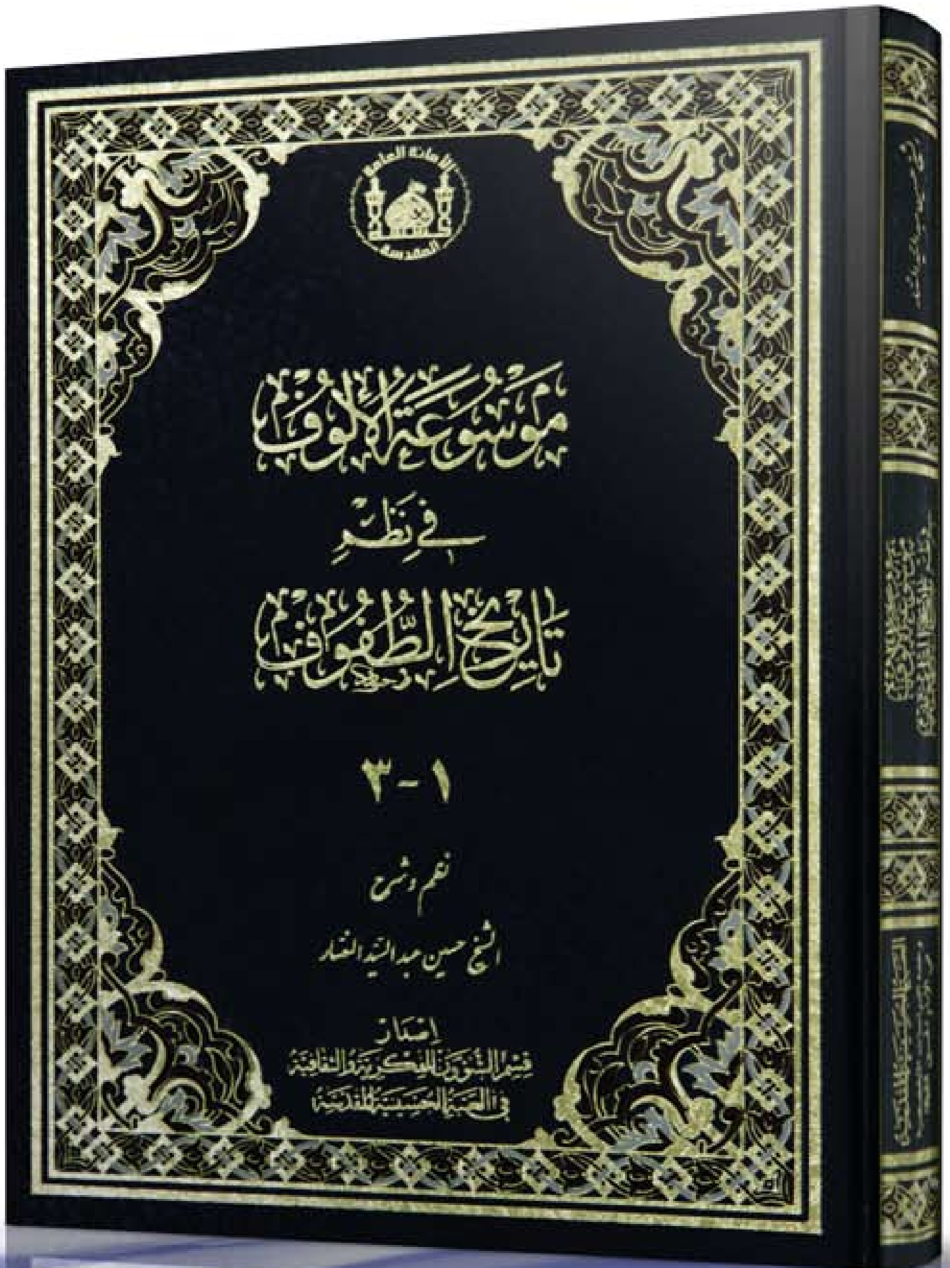
عن قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة الحسينية المقدسة كتاب موسوعة الألوف في نظم تاريخ الطفوف الجامعة لنصوص تاريخية في واقعة الطف من القرن الأول الهجري إلى القرن العاشر الهجري تزيد على أربعة آلاف بيت من الشعر